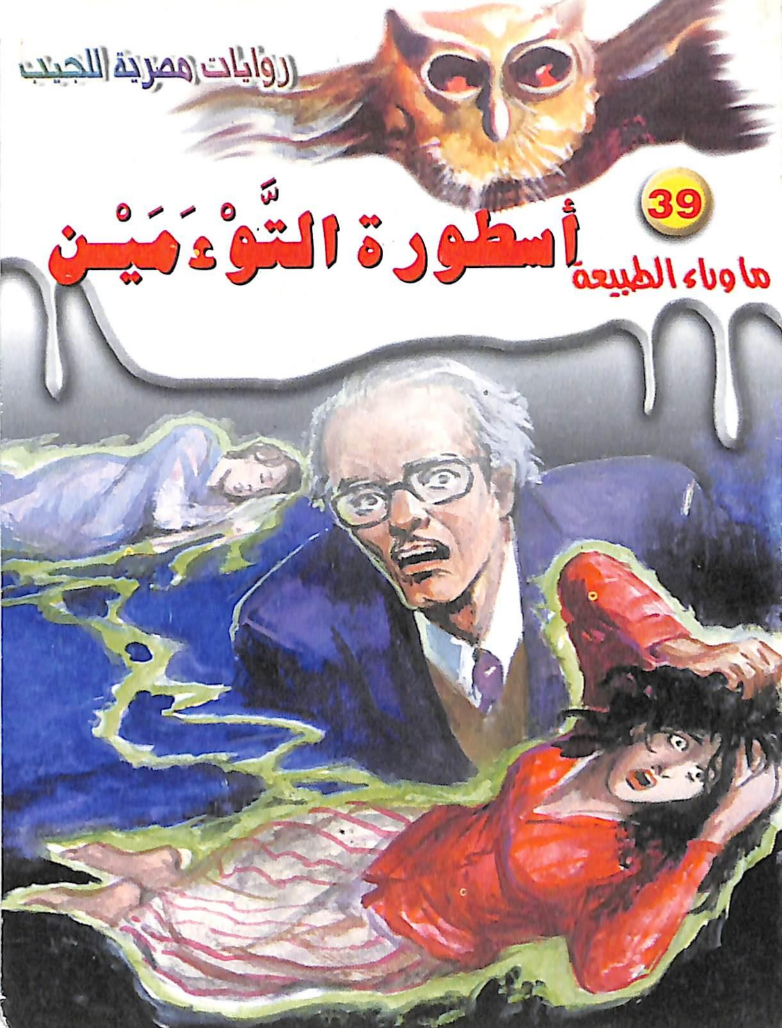

روايات مصرية للجيب
39
أسطورة التَّوْءَمَيْن
ما وراء الطبيعة

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

٥١٤٩٩



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة التوءمين

كان الضباب الفوسفورى الرقراق يتسلل كالدخان فى فضاء الغرفة ، منبعثًا من رأس (ناهد) ، ليلتف ببطء حول رأسى ورأس (إيجور) ، ثم ينتهى ليحيط برأس (نجلاء) .. ونظرت مستغيثًا إلى (إيجور) لكنه - لحسن الحظ - لم يبدُ مذهولا .. كان يعرف ماعليه أن يتوقعه ....

مطابع سلاح التلميذ

الثمن فى مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم :
خلف الباب المُغلق

39

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة التوءمين

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع.

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

39

أسطورة التوءمين

بقلم :
د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
☎ : ٥٩٠٨١٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢



مقـــدمـة

فى هـذا الكتيب نستكمل حكاية التوءمين (نجلاء) و (ناهد) ، واللتين صار لاسمهما ذات رنيـن (هنـاء) و (شيرين) أو (ريا) و (سكينة) بالنسبة لمسمعى ..

ولمن لم يقرءوا الكتيب السابق أقول : أرجـو أن تقــرءوا الكتيـب الســابق ، لأن التلخيـص يفســد كــل شىء ..

فقط نضــع بعض النقــاط علــى الحـــروف فنذكركـم أن التوءميـن قـد اكتشـفتا وجـود تطـابق شـعورى تــام بينهمـا .. إن الألـم الــذى تشــعر بـــه إحداهمــا يــزور الأخرى فى الوقت ذاته فى المكان ذاته ..

عرفنا كذلك أن (نجلاء) تمثل الفتاة متوسـطة الجمـال ـ يمنعنــا التهـذيب من وصـفها بالقبـح ـ الذكية إلـى حدَ ما .. وهى أول من لاحظ هـذه الظــاهرة وقـررت ـ لشدة ذكائها ـ الاستعانة بى أنا (رفعت إسـماعيل) صديق خالها ..

أما (ناهد) فتمثل الفتــاة باهرة الجمال ـ يمنعنها

التهذيب من الصراخ انبهارًا بها - فارغة الرأس ، ثقيلة الظلّ .. تزوجت مبكرًا وأنجبت ، لكنها ما زالت تعانى مطاردة الحبّ العنيد السمج لأفاق يدعى (صلاح) ، لم يقبل قط حقيقة كونها تزوجت ..

إن مضايقات (صلاح) لا تنتهى .. وقد أحال حياة الأسرة الهادئة إلى جحيم حقيقى .. والكارثة هنا هى أنه يعرف الآن سرّ الأختين الصغير ، ويعرف أن الطريقة المثلى لإيذاء (ناهد) هى عن طريق إيذاء (نجلاء) .. إن (ناهد) محاصرة بحراسة لا تهمد .. أما (نجلاء) فلا ..

ولأسباب يطول شرحها ؛ وجدت نفسى متورطًا حتى الساقين فى مستنقع العلاقات الأسرية المعقدة المتشابكة لهذه الأسرة .. ووجدت نفسى أمام علاقة المقت والتشكك العجيبة بين الأختين ، اللتين تحمل كل منهما حقدًا وحسدًا لا بأس به نحو الأخرى ..

لهذا ظلت علامات الاستفهام تتراقص أمامى ..

إن أشياء غير عادية ستحدث ..

أشعر بهذا ..

أعرفه جيِّدًا .....

الفصل الأول : مجرّد تمهيد .. ولعل الفصل الثانى أكثر حيوية ..

ونعود لجلستنا الصامتة فى غرفة الجلوس ، نتبادل صوت الأنفاس .. ونصغى لدقات الساعة المعلقة فى الركن ..

دوَى صوت أذان الفجر من مسجد قريب ، ففطنت لأول مرة إلى أننى لم أنم .. بل تذكَرت ـ فجأة ـ أن لى منزلاً لم أعد إليه هذه الليلة .. غريب هذا الحماس منى أنا الذى كففت منذ سبعة وتسعين عامًا عن الحماس لأى شىء .. يبدو أننى ما زلت شابًا إلى حدَ ما ..

قال د. (محمد) وهو يشمَر عن ذراعيه وبصوت مرهق ناعس :

- « هل تريد دخول الحمام يا (رفعت) ؟ »

قلت فى غيظ :

- « أنا هنا منذ الثامنة مساءً .. ولو لم أكن بحاجة للحمَام لكان معنى هذا إصابتى بفشل كلوى وانسداد معوى معًا ! »

هزَ يده كأنما ينصحنى بأن أخرس ، وقال :

ـ « حسن .. حسن .. لم أقارف إثمًا إذ سألتك .. تفضل إلى الحمام .. »

وناولنى شبشبًا زلقًا مبتلاً كى أذهب به .. صوت الصمت ، وصوت الأذان القادم من بعيد .. وإرهاق السهر.. كل هذا يحمل مذاقًا خاصًا .. مذاق الشجن .. الأحزان التى اختزنتها الأجيال تركَزت وعَتقت ، وهو ذا إكسيرها يتلخص فى لحظات شفافة هى السمو ذاته ..

★ ★ ★

بعدما فرغنا من الصلاة ، أعدَ لنا (محمود) مزيدًا من أكواب الشاى الأسود لأسكبها على الأريكة ، وجاءت لنا الأم بصينية عليها طبق من البيض المقلى الغارق فى السمن ، ومعه رغيفان أو ثلاثة .. ولسان حالها يقول : كلوا ، ولَكم أمقت أن أراكم تفعلون ! ويل للوغد الذى يجرؤ على هذا ..

ولم نجرؤ طبعًا ..

بعد دقائق من الصمت ، سألنى (محمود) :

ـ « حتى هذه اللحظة لم أفهم ما تنتوى عمله .. »

قلت وأنا أرشف ما بقى من الشاى فى كوبى :

- « إن (نجلاء) نائمة الآن .. عرفت هذا لأن (ناهد) نائمة .. كل ما بوسعنا هو أن ننتظر حتى تبدأ فى الصراخ ثانية ، وعندها نعرف يقينًا أن (صلاح) عاد يمارس هوايته .. »

- « وبعدها ؟ »

مددت يدى إلى المحقن الزجاجى الذى وضعته معدًا على المنضدة :

- « بعدها أعطى (ناهد) هذه الجرعة من (البارالدهايد) .. »

ازدادت عيناه حولاً دلالةً على اهتمامه بالأمر ، وسألنى :

- « وما دور هذا الـ (باردلايد) ؟ »

- « (بارالدهايد) .. إنه سيجعلها تغرق فى نعاس عميق مريب .. »

- « تريد ألا تشعر (نجلاء) بالتعذيب ؟ »

- « بل أريد ما هو أكثر .. إن (صلاح) لا يفقه شيئًا فى الطبَ ، ولسوف يجد أن ضحيته سقطت

فاقدة النطق والوعى .. بعبارة أخرى سيشعر كأنها ماتت .. أو توشك على الموت .. »

ـ « وهذا ما يريده .. »

ـ « بل هذا آخر ما يريده .. »

ووضعت المحقن بحذر فى مكانه ، ونظرت إلى (محمد شاهين) الذى لا يتابع حرفًا مما نقول .. كان رأسه قد سقط على صدره وراح يغط كحافلة الأرياف ..

قلت لـ (محمود) بعد ما تثاءبت مرتين :

ـ « إننا نلعب على نقطة واهية .. لكننى ـ بما أعرفه عن طبائع البشر ـ أعتقد أننا نستطيع الاعتماد عليها : (صلاح) ليس بقاتل .. ثم إنه يحبَ (ناهد) ولن يتركها تموت .. وهو ـ مثلنا ـ يتوقع أن موت (نجلاء) يقود بالضرورة إلى موت (ناهد) .. ماذا يفعل عندئذ ؟ إن مصير فكرتى يتوقف على تصرفه وقتها .. سيصيبه الذعر .. هذا مؤكد .. بعدها سيفرَ تاركًا الجمل بما حمل ، أو يطلب العون الطبى مجازفًا بافتضاح سرَه .. وهما احتمالان يزيدان من فرصتنا .. »

حكَ رأسه كأنما يرغم الفكرة على الدخول ، ثم قال :

ـ « وماذا لو أصابه الذعر أكثر من اللازم ؟ ماذا لو قرَر أن يحرق ضحيته ليخفي آثار الجريمة ؟ كلهم يفعل ذلك .. »

ـ « لا أعتقد .. إن رهانى الوحيد هنا هو على فهمى لطبائع البشر .. (صلاح) لا يقتل أبدًا ، ولو قتل فلن يبدأ بـ (ناهد) التى هى (نجلاء) .. »

ثنى ساقيه تحته طلبًا لبعض الراحة .. والحقيقة هى أن جلستنا هذه جعلتنى أشعر بأن ظهرى قضيب سكة حديدية ، وأردافى تزن أطنانًا حتى لتغوص فى الأريكة أميالاً وأميالاً .. قال :

ـ « وما هدف مغامرته هذه إن لم يكن القتل ؟ ماذا سيفعل بـ (نجلاء) بعد ما يملّ أساليب التعذيب كلها ؟ إنها تعرف عنه كل شىء الآن .. »

قلت متأوهًا :

ـ « آى ! ظهرى ! أعتقد أن كل ما يحدث وسيلة للضغط علينا .. وفى النهاية سيقدم عرضه المجنون.. طلقوا (ناهد) وزوَجوها لى .. وإلا ستموت ألمًا مع (نجلاء) فى اللحظة ذاتها ! »

- « ويظن الأمر بهذه السهولة ؟ »

- « لم لا ؟ هو غير ناضج اجتماعيًا .. مجرَد طفل في براثن (الهى) التى لا تهادن المجتمع ولا تتنازل عن أية رغبة .. وبالنسبة له أنت معتد أثيم .. وغد يجب أن يُقتل ضربًا بالأحذية .. »

- « أشكرك على دقة تعبيرك، .. »

- « لهذا أعتقد وأومن وأثق وأجزم بأن (صلاح) لن يتمادى .. تجربتنا هذه ستحطِم حاجز ثقته ، ليقف في العراء يرتجف بردًا ورعبًا.. ولهذا أيضًا أرى أن ...»

عندها دوَت صرخة (ناهد) المريعة .....

« أرى أن ... » ماذا ؟ حقًا لم أعد أتذكَر.. إن النساء قاتلات قصص محترفات ، والمعجزة الحقيقية هي أن تستكمل جملة واحدة تامة حين تكون امرأة في الجوار.. »

قلت له وأنا أتأمل المحقن :

- « هذه هي لحظة الحقيقة كما يقول الإنجليز .. ستريحها هذه الجرعة من آلامها وآلام أختها .. »

ودلفت معه إلى الحجرة حيث كانت المرأة المذعورة المولولة .. رفعتُ الملاءة ، وقلت لها شيئًا عن الحقنة التى ستريحها ، وقالت هى شيئًا عن

حاجتها إلى أى شىء ولو كان سمًا ، ثم بعد دقائق غابت فى نعاس عميق .. لو كانت (نجلاء) تمر الآن بهذا النعاس الفجائى ، فلا بد أن ذعر خاطفها شديد .. لو لم أكن طبيبًا لحسبتها ميتة حقًا ..

تحسست نبضها ليطمئن قلبى ، وأنا أشمَ رائحة (البارالدهايد) المقيتة فى هواء الغرفة .. ثم أشرت إلى الزوج كى نغادر الحجرة ..

ـ « ليس بوسعنا الآن سوى الانتظار .. »

★ ★ ★

لكم يثير مللى أن أعرف أننى على صواب فى كل مرَة ، فلا توجد مرة واحدة يخيب فيها رأيى أو يتضح لى أننى حمار ..

فى العاشرة صباحًا كان هناك رجل شرطة على الباب ، وكان مرآه كافيًا كى يبعث خيالات المشرحة والمستشفيات فى عقولنا جميعًا .. وكان بدوره متوترًا قلقًا ، أخبرنا أن (نجلاء) موجودة الآن فى المستشفى لكنه لا يعرف تفاصيل أكثر ..

وهرعنا ـ أنا والزوج و (محمد شاهين) ـ إلى المستشفى المذكور ، لنجد (نجلاء) هناك فى أسوأ

حال ممكن .. الكدمات تملأ وجهها .. والخدوش فى كل صوب .. بالإضافة إلى أنها كانت فى حالة من الوعى تذكرك بالغيبوبة ..

وعرفنا أن شرطة النجدة تلقت مكالمة هاتفية من مجهول - مذعور كذلك - يخبرهم بأن هناك فتاة فى حالة سيئة ، فى بناية لم يُستكمل بناؤها بعد فى (حلوان) ، وناشدهم بالإسراع لأنها توشك على الموت إن لم تكن ماتت بعد .. وبالطبع وضع السماعة قبل أن يسأله المساعد عن بياناته ..

وانتقل رجال الشرطة إلى هناك ليجدوا أن البناية خالية تقريبًا .. لا يوجد أمامها خفير يدخن المعسل ، ولا ينبح فى مدخلها كلب أجرب المفترض أنه مخيف .. صعدوا فى درجات السلم الطوبية إلى الطابق الرابع .. وأخيرًا وجدوا فتاة مقيدة ملقاة جوار الجدار ، وكانت تشى بآثار معاملة سيئة حقًا .. بالإضافة لهذا وجدوا حشية مفروشة على الأرض الترابية، وبعض أطعمة ، ولفافات تبغ كثيرة تركها من خطفها حوله ..

كانوا هذه المرَة بحاجة إلى سيَارة إسعاف ، وحين وصلت هذه بعد ساعتين كالعادة ، مما يدلك على لهفتهم

الشديدة ـ نقلت الفتاة إلى المستشفى ، وقال الأطباء إنها على ما يُرام جسديًا .. فقط ضربت بشدَة وعنف غير معتادين .. المشكلة الوحيدة هى أنها مصدومة نفسيًا وعاطفيًا ، وبالتالى صار استجوابها مستحيلاً فى هذه الآونة .. ويبدو ـ كما قال الأطباء ـ أنها تحت تأثير مخدَر ما ..

كان هذا كل شىء ، وقد أجبنا عن أسئلة المحضر بعدد لا بأس به من الإجابات كلها على غرار (لا أعرف .. لست متأكدًا .. هذا محتمل) .. لكن الزوج أصرَ على ذكر اسم (صلاح) فى المحضر .. فهو يتهمه بكل شىء ، ويطالب رجال الشرطة بالقبض عليه فى أقرب وقت ..

وحين فرغنا ، قال لى د. (محمد شاهين) :

ـ « كانت نظريتك صائبة برغم كل شىء .. إن أعصاب الفتى لم تتحمل أن يراها تموت أمامه، وربما بسببه .. لكن هل تعتقد أن الخطر ما زال قائمًا ؟ »

قلت وأنا أرمق (نجلاء) الغافية ، بينما خراطيم المحاليل تتشابك حولها كغابة من الخطر :

- « مع (صلاح) أو من دونه ؛ سيظل الخطر قائمًا .. إن هاتين الفتاتين مرغمتان على أن تتقاسما مشاعرهما ، والأدهى أنهما تكرهان بعضهما .. ربما إلى حدَ أن تؤذى الواحدة نفسها لتؤذى الأخرى .. هذا وضع غير طبيعى .. وكل الأوضاع غير الطبيعية خطرة ما لم يثبت العكس ..



الفصل الثانى : إعداد .. ولعل الفصل الثالث يناسبك أكثر ..

فى الأيام التالية دنونا برفق من عالم (نجلاء) الشائك ، ولم يحاول واحد منَا أن يذكرها بما هو أكثر من اللازم .. كانت تتحسن ببطء ، لكن ذكرى ما حدث ظلت منطقة محرمة بالنسبة لنا ، وتعاهدنا ـ دون أن نقولها ـ على أن نتركها هى تتكلم أولاً .. فإن لم تفعل فلن يبدأ أحدنا ..

كانت الشرطة متلهفة على سماع اتهامها الواضح الصريح لـ (صلاح) ، لكن الفتاة ظلت تتحاشى هذا المنعطف فى كلامها .. وأدركت أنه هددها كثيرًا ، حتى صار بالنسبة لها كائنًا يفوق القدرات البشرية .. كضميرها .. كالأخ الأكبر الذى يراقبنا فى قصة (جورج أورويل) .. لو تكلمتِ أكثر فسوف يعرف بابا (صلاح) ويذيقك الويل .. الويل الذى لا يقدر أى (محمود) أو (رفعت) أو (محمد شاهين) أو أى رجل شرطة على منعه ..

ومن نافلة القول هنا أن أقول إن (صلاح) اختفى .. تلاشى تمامًا .. بحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه ..

وظلّ السؤال معلقًا : كيف اختطفها ؟ كيف نقلها إلى (حلوان) على مرمى أحجار من دار أختها ؟ كيف ولماذا اختار هذه البناية المهجورة ؟ ماذا كان يريد بالضبط ؟

وهكذا دارت الأيام كما يحدث فى أفلام السينما المبكرة : تطايرت الأوراق من على تقويم الحائط ، حتى مرّ شهر كامل ..

★ ★ ★

كنت أمشى فى أروقة إدارة الجامعة ، باحثًا عن موظف يسبب لى مزيدًا من المشاكل ، ويقول لى إن أوراقى لن تتمّ أبدًا لهذا السبب أو ذاك ، حين قابلته.. من ؟ د. (محمد شاهين) طبعًا .. فمن الطبيعى أننى لا أعيش لدى تلك الأسرة ، والحقيقة هى أننى لم ألقه منذ عشرة أيام ..

بعد التحيات المبتلة بالعرق سألته عن (ناهد) و (نجلاء) ، فقال لى باسمًا :

ـ « ماذا ؟ ألم تعرف ؟ إن (ناهد) قد سافرت مع

زوجها إلى (أسوان) ، حيث سيعمل فى السدَ العالى .. لقد كان يتهيب هذه الخطوة منذ زمن .. أنت تعرف كراهية المصرى للترحال ، ويوم تركت قريتى لأدرس فى (القاهرة) ، ودعتنى أمَى بالعويل على محطة القطار .. لكن (محمود) لم يعد يملك خيارًا آخر .. إن (أسوان) تبعده عن ذلك الوغد الطليق .. ثم لا تنس أنه مهندس قبل أن يكون زوج (ناهد) .. »

قمت بابتلاع المعلومة ومحاولة هضمها .. لا بأس .. لكنهم ـ الحمقى ـ ينسون أن (نجلاء) ما زالت هنا ، وكان عليهم ترحيلٍ الأختين إلى (سويسرا) لو كانوا يطلبون الأمان حقًا ..

قلت له وأنا أطوى أوراقى :

ـ « هذا جميل .. لكن ماذا عن (نجلاء) ؟ إنها ما زالت متاحة على ما أظن .. »

نظرة غريبة التمعت فى عينيه .. نظرة أثارت هلعى .. وبلزوجة قال :

ـ « ما رأيك فى (نجلاء) ؟ »

دون حذر قلت :

ـ « فتاة طيبة ذكية تمت تربيتها جيدًا .. »

- « وسيدة بيت من الطراز الأول ! »

- « إنها ليست جميلة .. لكن وجهها مريح يسرَ النفس .. »

- « جدًا !» - واحمرَ وجهه كعرف ديك، وأردف:

- « نحن نتفق على الخطوط الأساسية إذن ! »

- « أية خطوط ؟ »

نظر حوله ليتأكد من عدم وجود مراقبين ، ثم تأبط ذراعى بذراعه الدسمة المكتنزة ، واقتادنى ليسند ظهرى إلى الحائط ، كما يفعل رجال الشرطة فى الأفلام الأمريكية عندما يعتقلون لصَ المتاجر :

- « (رفعت) .. أنت أخى وتعرف جيدًا كم أحب مصلحتك .. إن المثل يقول: (اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك) .. و (نجلاء) عزيزة أثيرة إلى نفسى.. وأرانى أبخسها حقها لو سمحت لأى وغد آخر .. أ ... لأى رجل آخر أن يظفر بها ! »

كنت أنا نموذجًا مجسدًا للغباء والبلاهة : وفى النهاية تمكنت من تشكيل الأحرف فى شكل جملة :

- « هل تمزح ؟ »

ـ « لا مـزاح فى الحـلال .. إن (نجـلاء) بحاجة إلى رجل يحميها ، وأنت رجل حقيقى .. يعلم اللَّه أنـك رجل حقيقى .. »

مسحت قطرات لعابـه مـن علـى وجهـى ، وعـدت أصيح :

ـ « أنا غير قادر على حماية نفسى مـن بعوضـة ، وتطالبنى بحماية هذه الفتاة التـى تتحمـل آلامهـا وآلام أختهـا معًا ؟ ثم .. هى فى عمـر ابنتى .. ولو تركت أمى ـ رحمها اللَّه ـ تزوَجنى (شفيقة) ابنـة العمـدة وأنا فى سـن العشرين ؛ لكانت عندى طفلة فى عمر (نجلاء) .. (محمد) .. إمـا أنـك جننـت ، وإمـا أن تصلب شرايين المخ قد ...... »

هنا ـ فقط ـ تقلص وجهه ، وأدركت كمَ العواطف الذى يكتمه طيلة هذا الوقت .. لقد كـان عمليًا علـى وشك البكاء :

ـ « إننى بمثابة أب لها الآن .. إن أباها لم يعد فى حال تسمح بـ ... وأصارحك أن المسئولية ترهقنى .. ترهقنى .. »

ـ « لهذا تلقيها فوق كتف أول حمـار تلقـاه ، مثلما

حـاول (أطلس) أن يلقى بالكـرة الأرضية فـوق كتفى (هرقل) ؟ »

من جديد بشَ وجهه :

- « أنا لست (أطلس).. لكنك أفضل من (هرقل)..»

- « اسمع يا (محمد) .. أنا الآن شيخ فان .. ربما أبدو فى العقد الخامس لكن قلبى وصحتى يؤهلانى لأن أكون فى العقد العاشر .. ولا أجد نفسى - بعد كل ما رأيت فى حياتى - صالحًا لشىء سوى أن أسعل ، وأطلب كوب ماء ، ثم أنطق بالشهادتين وأموت .. وتحدثنى عن الزواج بعد كل هذا ؟! »

بدا عليه القنوط ، وقال وهو يطلق سراحى :

- « لا تقل شيئًا الآن .. فكِر ثم سأسألك ثانية .. »

قرَرت تغيير الموضوع الشائك .. سألته وأنا أطوى أوراقى للمرة الثالثة :

- « هل ستعود (نجلاء) للعمل ؟ »

- « بالطبع لا .. إن ما حدث لها حدث وهى فى مكتب ذلك المحامى .. »

- « إذنٍ عندى عمل لا بأس به لها .. »

- « حقًا ؟ وما هو ؟ »

★ ★ ★

(مختار نجيب) .. اسم له رنين قوى يوحى بمحام بارع أو طبيب نابه .. وكان صاحب هذا الاسم من بلدة مجاورة لبلدتى فى (الشرقية) ، وهو من أسرة طيبة على قدر لا بأس به من الثراء ، وقد صار محاميًا استعنت به فى مشكلة الأرض إياها التىِ أثارت خلافًا بين أمى وأخى .. لم يكن شخصًا رديئا لكن صوته العالى - إلى درجة سماع همسه حين يكون فى بئر السلم وأنا فى شقتى - جعلنى زاهدًا فى توطيد علاقتى به، وجعلنى أفرَ من كل مناسبة تقرَب بيننا ..

لكنى - بفضل اللّه تعالى طبعًا - استطعت أن أعالج ابنه من نوع نادر من أنواعٍ فقر الدمَ ، وعلى طريقة زعماء (المافيا) صار مدينا لى بخدمة لا يمكن أن يرفضها ، ولى أن أسأله إياها فى أية لحظة ..

كان (مختار) سليط اللسان ، غير سهل الهضم ، يقع مكتبه فى أكثر شوارع (القاهرة) إزدحامًا ، والبناية نفسها ذات أهمية أمنية خاصة ، لذا هى مدجَجة برجال الشرطة المتنكرين منهم والسافرين .. باختصار : كان مكتب هذا الرجل هو أكثر الأماكن أمنًا لصبية مذعورة يطاردها مجنون ، خاصة إذا كانت هذه الصبية محامية شابة ..

وهكذا تروننى مـع (نجـلاء) فـى المصعد ، نتجـه للقاء محامينا الأشهر الذى سيعقد لهـا اختبارًا سريعًا لا بـد أن تنجح فيـه .. تحملتُ الكثـير مـن الصـراخ والضحكات المجلجلة التـى يطوّح فيها رأسه للوراء وذقنـه للأمـام ، ثـم التـأكيد علـى أن الفتـاة بخـير ، ولسوف تكونٍ كابنته أو أكثر ..

كنت مطمئنًا لهذا ، وزاد من اطمئنانى ذلك المحامىٍ الشاب الخجول الذى جلس يسترق نظرات أكـثر خجلاً لـ (نجلاء) .. كان اسمه (كمال) ، وأصابعه نظيفة من الخواتم تمامًا .. إن هذه لحظـة مـن اللحظـات النـادرة التى يصير فيها المستقبل واضحًا تمامًا وحتميًا ..

وابتسـمت خلسـة .. وتخيلـت المحاميـة الشـابة المبتدئة المذعـورة فى ردهـات المحكمـة الرهيبـة ، لا تعرف شيئًا سوى مـا ينصحهـا بـه (كمـال) ، فلـو كانت هى (النداهة) أو كان هو مسخ (فرانكنشتاين) نفسـه ، فـلا يهـم .. الحـب سيولد حتمًـا .. ولسـوف تمضى حياة الفتاة فى مسار طبيعى لا بأس به أبدًا ..

ودعتها كأننى أمَ اطمأنت على فلذة كبدها ، وعدت أمارس حياتى التى هى دائمًا حياتى ..



كنت مطمئنًا لهذا ، وزاد من اطمئنانى ذلك المحامى الشاب
الخجول الذى يسترق نظرات أكثر خجلاً لـ (نجلاء) ..

لكن القضية لم تنته بعد .. ولم تمت المشكلة ..
ظلت تطل برأسها خارج التابوت فى إصرار غريب ..

* * *

متى حدثت المأساة التالية ؟
لا أذكر بالضبط .. ربما بعد هذا بثلاثة أشهر ..
أذكر فقط أننى كنت فى مكتبى أقرأ بعض المراجع الطبية ، حين .....

* * *

الفصل الثالث : إطناب كثير ويمكن أن تبدأ بالفصل الرابع ..

دقَ جرس الهاتف فى مكتبى ، فرفعت السماعة لأعرف الكارثة التالية .. لماذا كارثة ؟ لأن هذا الجرس الأحمق لا يدقَ إلا لهذا السبب :

- « آلو ؟ »

كان هذا صوتًا جهوريًا يمكن سماعه من دون هاتف ، فقلت :

- « (مختار) ؟ ماذا حدث ؟ »

- « الفتاة .. (نجلاء) .. إنها فى حالة صحية مريبة .. »

- « هذا لن يكون غريبًا علىَ .. »

- « لقد طلبت منا الاتصال بك حالاً .. رفضت أن نطلب الإسعاف .. باللَّـه عليك أسرع يا (رفعت) ، فقد نلنا من صراخها ما يكفى .. »

- « ولكن ..... »

- « أنا بانتظارك » (كليك !) ..

وبغباء رحت أرمق السماعة في يدى .. لا مفرَ ولا منجى لى إذن .. إنها لقادرة على العثور علىَ فى أى مكان وأية لحظة ، وكلما شعرت (ناهد) بصداع أو آلام فى ظهرها .. والمشكلة هى عجزى التامَ عن التنصل .. ألم أكن أنا الذى زرع تلك المصيبة فى مكتب (مختار) ؟

وهكذا ارتديت سترتى ، وهرعت إلى سيارتى .. سيكون الوصول إلى مكتب (مختار) والعثور على مكان للتوقف مستحيلاً فى ساعة كهذه .. لكن ما باليد حيلة ..

★ ★ ★

وتحسستْ خصرها حيث رقدت على المقعد الجلدى، لا تكف عن الأنين .. فأطلقتْ صرخة عارمة وانفجرت باكية ..

كان الأمر واضحًا .. مغص كلوى شديد إلى درجة أنه جعلها تصرخ ، وهى من الطراز الصموت الخجول الذى يصرخ عن طريق عض شفتيه ..

قال لى (مختار) وهو يشعل لفافة تبغه الثالثة :

ـ « يجب أن تأخذها معك ! لا يمكن تركها هنا .. »

وهتف (كمال) فى هستيريا وهو يقرب كوب ماء من شفتيها :

- « افعل شيئًا يا دكتور ! لو كانت بحاجة إلى دمى فخذوه ! »

وأنا أمقت هذا النوع من التطوع العاطفى الذى لم يطلبه أحد ..

من تحدَث عن دم هنا ؟ قلت وأنا أنهضه :

- « لسنا فى أحد أفلام (توجو مزراحى) يا بنى .. إن خير ما تقدمه لها هو أن تكف عن صبَ السوائل فى فمها ، فخير ما سيحدث هو أن تقىء فوق ثيابك .. »

ولـ (مختار) قلت وأنا أشخبط كلمات على ورقة :

- « أما عنك ، فرغبتك فى الخلاص منها حتى لا تموت فى مكتبك وتجلب لك المصائب ، رغبتك هذه لا تهمنى البتة .. قل لأحد العمال أن يجلب لنا هذه الأدوية حالاً .. »

بدا مترددًا فأخرجت ورقة عملة دسستها فى يده ، متعمدًا الإهانة .. لكنه كان عمليًا أكثر من اللازم ، فاكتفى بأخذ المال والورقة والخروج من الغرفة .. لهذا ينجح الناس ويثرون بينما أفشل أنا ..

جاء الدواء ، فأفرغت ما استطعت منه في عروق الفتاة ، وبدا لى أنها تتحسن حقًا .. نظرت لساعتى فوجدت أنها الثالثة بعد الظهر ، ولا بد أن هناك مشهدًا مأساويًا مماثلاً يحدث فى (أسوان) الآن ..

- « هل أنت بخير الآن يا (نجلاء) ؟ »

بصعوبة فتحت شفتيها اللتين التصقتا بالقشور ، وقالت :

- « نـ .. نعم .. شكرًا لك .. »

- « إذن تعالى ببطء .. سأوصلك للبيت .. »

دون كلمة أخرى أعاد لى (مختار) عشرين قرشًا بقيت من مالى بعد شراء الدواء ، وقال فى كياسة إنه يرحَب بأن تأخذ الفتاة إجازة لمدة يومين .. أما (كمال) فعانقنى فى حرارة ليغرق وجهى بالدموع والعرق .. إنه عاشق متحمس حقًا ، ولا بد أنه يغنى لها الكثير من أغانى (عبد الحليم حافظ) بصوته الأجش المشروخ .. »

وفى سيارتى سألتها عن رقم هاتف (ناهد) فى (أسوان) ، فلا بد من إخطار الزوج بالأمر .

كانت منهكة ملبدة الفكر نوعًا من تأثير الدواء

ـ الذى يحوى بعض المخدَر طبعًا ـ لكنها أملت الرقم ببطء شديد ، وكررته أنا كى استظهره ، ووصلنا لدارها فساعدتها على الصعود ، وبالطبع قوبلت بأفظع عاصفة من الهستيريا والجزع .. وكان علىَ أن أؤكَد لهم أننى لست السبب فيما حدث ..

فى النهاية نزلت الدرجات المهشمة ، واتجهت إلى السنترال المجاور كى أتصل بـ (أسوان) .. وفى تلك الأيام كان الاتصال بمحافظة أخرى يستغرق نفس الوقت اللازم للسفر إليها بقطار الدرجة الثالثة ..

لا بد أننى ازددت، شيخوخة ، حين سمعت صوت الموظف يهدر فى سكبر الصوت بالرقم الذى طلبته ، وهرعت إلى الكابينة لأغلقها علىَ ، وأسمع صوت (محمود) يتساءل عن المتكلم ..

ـ « إنه أنا يا (باشمهندس).. (رفعت إسماعيل)..»

ـ « أعوذ باللّه ! هل توفى أبو (ناهد) ؟ »

ـ « للأسف لا .. أردت أن أطمئنك على (نجلاء) .. لقد انتهت نوبة المغص الكلوى ، ولا بد أن (ناهد) بخير بدورها الآن .. »

ساد الصمت هنيهة ، ثم غمغم فى بلاهة :

ـ « مغص ؟ إن (ناهد) على ما يُرام .. أعدت لنا الغداء وتناولته معى ، ثم هى الآن تغسل الأطباق فى المطبخ .. لحظة .. ها هى ذى قادمة ! لا شىء يا (ناهد) .. لا شىء .. لم يمت أحد .. إنه ذلك الطبيب يؤكد أنك تتألمين من المغص الكلوى .. حتى لو كنتِ بخير فلا تصدَقى ذلك لأن الأطباء لا يخطئون أبدًا .. »

وسمعت صوتها تغمغم بشىء ما ، ثم جاء صوته :

ـ « على كل حال أشكرك يا دكتور .. أبلغ السلام لجميع من لديك ، وقل لهم أن يتصلوا بنا .. »

ووضع السماعة ..

غادرت الكابينة غارقًا فى العرق .. عرق القيظ وعرق الارتباك ..

إذن (ناهد) لم تمرَ بالألم ذاته .. للمرَة الأولى منذ بدأت الظاهرة ، أجدها تتصرَف بشكل منفصل عن شقيقتها .

ما هو التفسير ؟

التفسير الأول : هو أن الظاهرة انتهت .. كان لها زمن معين ثم استنفدت أسبابها ومواردها ، وانتهت ..

كما يفتك بنا فيروس (الإنفلونزا) لأيام ، ثم يقرر فجأة أن ينهى دورة حياته ..

التفسير الثانى : هو أن بُعد المسافة لعب دورًا فى إضعاف الظاهرة ، وهو تفسير يمكن قبوله إذا افترضنا أن موجات أثيرية معينة تنتقل من واحدة للأخرى ، ولا يمكن قبوله إذا تبنينا نظرية (ساعة الحياة) التى تحدثنا عنها فى الكتيب السابق (الفصل التاسع) ..

الطريقة الوحيدة للاستقراء هى أن نجرب إحداث ألم لدى (نجلاء) ، وبشكل متكرِّر ، فإذا حدث توارد شعورى كان هذا دليلاً على وجود خطأ ما .. وإن لم يحدث كان علينا أن نقرِّب الأختين ونعيد التجربة .. بهذا يمكننا قبول أحد التفسيرين أو رفضهما معًا ..

★ ★ ★

عدت إلى الشقة لأطمئن على (نجلاء) من جديد .. كانت نائمة بذلك الإنهاك الذى يلى المغص الكلوى ، ويجعل تمييز المريض من الملاءة عسيرًا حقًا ..

سألنى الأب عن صحة (ناهد) ، وهو حدس غريب لأننى لم أقل لأحد إننى سأتصل بها .. والأغرب

هو أن الرجل يعى ما يحدث حوله جيدًا ، وكنت أظنه لا يفهم ما يحدث بوضوح ..

- « بخير .. بخير .. »

وقربت مقعدى من فراش (نجلاء) ، وكانت المرة الأولى التى أجد فيها وقتًا لأتأمل الغرفة الضيقة التى شهدت صبا الشقيقتين .. كانت مطلية بالجير الذى تشقق فى عدة مواضع ، والسقف يشى بتسرب ماء حدث فى وقت ما .. وعلى الجدار صور مقصوصة من مجلات فنية عليها نجوم الساعة : (عبد الحليم حافظ) - (سعاد حسنى) .. ثم كتابات على الجدار بعضها كلمات من أغان ، وبعضها دعاء بالنجاح .. وكانت خزانة الثياب مفتوحة تكشف عن بعض (البلوزات) الرخيصة التى - حتمًا - تشاجرت الفتاتان كثيرًا بسببها يومًا ما .. (ناهد) هانم قد ارتدت بلوزتى الجديدة دون أن تطلب إذنى .. (نجلاء) سرقت دبابيس شعرى .. أين قميص نومى الأبيض ؟!

وابتسمت ، وتمنيت ألا يرى أحد ابتسامتى .. لقد رأيت فى حياتى أفخم القصور فى (سكوتلندا) ، وأرقى الفنادق فى (جنيف) ، لكن هذا الجوَ المصرى الحميم ما زال يثير حنينًا شديدًا فى أعماقى ..

فتحت عينيها ببطء ، ورمشت قليلا .. فسألتها بصوت رقيق :

ـ « (نجلاء) .. هل أنت بخير الآن ؟ »

ـ « نـ ... نعم .. »

ـ « لدى سؤال واحد .. لو أجبت عليه سأرحل ويمكنك العودة للنوم .. »

ـ « قُله .. »

ـ « هل حدثت لك آلام غير مبرَرة منذ سافرت (ناهد) إلى (أسوان) ؟ »

رمشت من جديد ، بعينين حمراوين زائغتين كأنما تتذكر .. ثم قالت :

ـ « لا .. مرة واحدة أو مرتين .. لقد تحسن الوضع كثيرًا .. »

ـ « هذا هو كل شىء .. شكرًا .. »

ونهضت ، ودعوت الأب كى يقودنى لباب الشقة .. يمكن القول إن المسافة هى العامل الأساسى الذى أدى لشفاء هاتين المزعجتين .. إن اتصالهما شبيه بموجات الراديو التى تضعف عندما تمرَ السيارة تحت نفق ..

ولأسباب مماثلة لا يستطيع مذياعى التقاط نشرة أخبار (الإسكيمو) لو كانت لديهم نشرة أخبار ..

كل شىء واضح متسق ، وأعتقد أننى أستطيع إغلاق هذا الملف للأبد ، ووضعه فوق أحد رفوف ذاكرتى كى يغطيه الغبار وخيوط العنكبوت .. المهم — فحسب ـ ألا أنسى أنه هناك .....

* * *

الفصل الرابع : كثير من الهراء .. ولا أدرى ما يمنع من الانتقال للفصل الخامس ..

نتشرف بدعوتكم يوم الخميس ٧/١١ فى تمام الساعة السابعة مساء .

لحضور حفل زفاف

الآنسة / نجلاء عبد الجواد

كريمة الأستاذ / عبد الجواد خليفة

المدير العام بالضرائب سابقا

إلى

الأستاذ / كمال أبو قورة

نجل المرحوم / محمود أبو قورة

وذلك فى منزل العروس . والعاقبة عندكم فى المسرات .

تأملت الدعوة التى أحضرها لى د. (محمد شاهين) فى رضا .. كل شىء كما توقعته بالضبط ، وها هى ذى الدعوة المطبوعة بمزيج من اللونين الذهبى والفضى

مع رسم ساذج لعريس وعروس يتطلعان للسعادة في طريق مفروش بالورود ، يقود إلى عربة ذات خيول مطهمة !

يضحكني دومًا هذا التصور الركيك للسعادة ، ولكني راض برغم كل شيء .. إن (نجلاء) فتاة طيبة طاهرة ، ومن حقها أن تمارس حياة طبيعية ..

هل أذهب ؟ بالطبع .. أنا لا أطيق حفلات الزفاف ، لكني لا أطيق قضاء ليلة الخميس وحدي في داري ، وليست لديَ خطة محدَدة .. ثم إن الفرار من (محمد شاهين) مستحيل على كل حال ..

* * *

وهكذا - مرتديًا البذلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا - توجهت إلى دار (نجلاء) ، وكانت الأفراح في تلك الأيام تعقد دائمًا على سطح البناية ، ولم تكن هناك تلك المظاهر العجيبة كأندية الخمسة نجوم ، والتورتة متعدَدة الطوابق ، ورقص العريس والعروس في حفل زفافهما .. ربما كنت متخلفًا ، لكني لا أسيغ هذه المظاهر الحالية على الإطلاق ..

كان الشارع كله مجتمعًا هناك ، والإضاءة تزيد الحرَ حرارة ، وثمة جارة بدينة قررت أن تلعب دور الراقصة ، مما لم يساعد على إضفاء مزيد من البهجة ..

وبطرف عينى لمحت باقة ورود عليها بطاقة (مختار نجيب) المحامى ..

هناك كانت (نجلاء) فى الكوشة إلى يمين عريسها ، وقد حرص من زينها على أن يبدو مجهوده واضحًا ، لقد حوّلها إلى أقبح عروس مولد يمكن أن تراها . أما (كمال) فكان يرتدى بذلة سكرية اللون ، ولا يكف عن العرق والتظاهر بالمرح ..

محاذرًا أن تضربنى الراقصة البدينة بكوعها ـ وفى هذا هلاكى حتمًا ـ اجتزت المكان لأهنئ العروسين ، ودنا مصوَر أصلع كى يلتقط لنا صورة باسمة طلبها العريس بإلحاح .

واستطعت أن أرى (ناهد) ـ وطفلها الذى تعلم المشى الآن ـ تشق طريقها ، وتطلق زغرودة قوية تلفت بها الأنظار ، أما (محمود) فكان يتشاجر مع أحدهم .. وكل الناس يتشاجرون فى حفلات الزفاف

لسبب لا أفهمه حقًا .. ولاحظت بصمات شمس (أسوان) الحارقة على بشرته .

كان المفرَ الوحيد لى هو ركن المكان .. تسللت إلى هناك ، وأعطيت ظهرى لكل هذا الزحام، ورحت أرمق الظلام النقى المخيم على المنطقة ، وانتابتنى رجفة فى عروقى .. هذا الشعور المتفرَد العتيد .. حين تدير ظهرك للصخب ، وتقف وحدك فى الظلام شاعرًا بلذة الشجن .. لذة الحزن .. أو ما يسميه الإنجليز بـ (زهرة الحائط) ..

الشارع صامت ينعكس عليه ضوء شاحب من الزينة المعلقة على السطح ، والشارع خالٍ لأن كل سكانه يقفون الآن ورائى ..

استطعت أن أرى ذلك الخيال لأحد المارة يمشى الهوينى فى الطريق وقد بدا شاردًا .. شاردًا إلى درجة لا تسمح بها هذه الضوضاء ..

نظر لأعلى نظرة عابرة ، ثم واصل المسير ، لكن هذا كان كافيًا لى ..

هذا (صلاح) ! برغم الظلام والمسافة عرفته ..

(صلاح) يحوم حول حفل الزفاف ، فلماذا ؟

لا أعتقد أنه سيقتحم الحفل ليطلق الرصاص على (ناهد) .. الحياة ليست بهذه الميلودرامية التى نراها فى السينما .. هنا أكثر خطورة من الرصاص ..

معناه أنه لم ينس قط ، ولم يتعلم قط ..

معناه أنه قريب، يعرف كل شىء عن هذه الأسرة ، وثمة شىء يختمر فى ذهنه طيلة الوقت ..

هل أصرخ وألفت نظر الموجودين ؟ فى الغالب لن أفيد بشىء من هذا سوى إفساد ليلة العمر على (نجلاء) .. (صلاح) سيختفى كما يختفى الفأر فى مقلب قمامة ، بمجرَد أن يدرك أننا لاحظناه ..

رأيت أن الحلَ الأكثر صوابًا هو أن أخبر (محمود) ..

ناديته ، واختليت به بعيدًا عن السامعين ، وأخبرته همسًا أن (صلاح) هنا ! إنه يحوم حول البناية ..

- « الوغد ! لا بد أنه ينتوى عملاً أحمق ! »

- « لا أظن .. إنه يبحث عن وسيلة يرتكب بها عملاً أحمق ، لكنه لم يستقر على رأى بعد .. »

- « وماذا ننتظر ؟ هل نلحق به .. »

- « كنت أفكَر فى الشىء ذاته .. لكنى - أصارحك - لست من هواة أن أتلقى اللكمات فى أنفى أو الركلات

فى بطنى، كما أننى ـ بالتأكيد ـ لا أحب طعنات المُدى فى طحالى .. ولهذا ـ أصارحك ـ أشعر بالخوف من التعرض لهذا الشىء المخبول .. »

احمرَ وجهه وازدادت عيناه حولاً :

ـ « دعه يحاول شيئًا كهذا ، ولسوف يجمعون أشلاءه بالملقط .. »

وكوَر قبضته وانطلق ، فرحت أركض خلفه محاولاً أن أبدو على طبيعتى ..

وفى الشارع كان الظلام دامسًا .. الانعكاسات الشاحبة لأضواء الزينة هى الشىء الوحيد الذى يجعلنا نميز ما حولنا ..

ـ « فلنتفرق ، وعلى من يراه أن ينذر الآخر .. »

ـ « هل تقترح صيحة وعل (الإستبس) فى موسم التزاوج ؟ »

نظر لى فى الظلام ، فلم ألمح ضحكة التهكم على وجهه تعبيرًا عن ثقل ظلَى ، واتجه إلى اليمين فاتجهت إلى اليسار ..

لم أمش سوى عشرين خطوة حتى وجدته .. كان خارجًا من زقاق جانبى ، وفى يده لفافة تبغ غير

مشتعلة .. لقد تبدَل كثيرًا حقًا ، فلم يعد يطيل شعر رأسه ، وأطال لحيته بطريقة غريبة ، إذ أوصلها بسالفيه ، حتى صار أقرب لصور كتب التاريخ التى تمثل الإمبراطور (غليوم الأول) أو (غاريبالدى) - لا أدرى من بالضبط - وعلى عينيه عوينات بلا إطار .. لكن من المستحيل أن يرى المرء هذا العود مرتين ..

دنا منى ، وباشمئزاز لا داعى له دس لفافة التبغ فى شفتيه ، وقال :

- « تشمح تولَع لى ؟ »

بسبب اللفافة التى شوهت حروفه.. وهنا فطنت إلى الحقيقة الغريبة : (صلاح) لا يعرفنى ولا يذكرنى .. لم يرنى سوى دقيقة واحدة فى المستشفى ، ولربما لم يلحظنى أكثر ، أما أنا فأذكره جيدًا بالطبع .. لقد رأيت ممثلاً سينمائيًا شهيرًا ذات مرَة فى ميدان (التحرير) ، ورآنى هو أيضًا .. لكن من طبيعة الأشياء أننى ظللت أذكر كل تفاصيل ثيابه ، بينما هو نسينى بالتأكيد بعد دقيقة واحدة ..

وكان (صلاح) هو بطل هذا الفيلم .. يلعب دور (الشرير) أو (الفيلَين) ببراعة غير عادية .. لهذا نذكره جميعًا حتى لو لم يذكرنا هو ..

أشعلت له لفافة تبغه بيد مرتجفة قليلاً ، ورحت أفكر : هل أصرخ الآن ؟ هل أنقضَ عليه وليكن ما يكون ؟

فى النهاية وجدت حلاً مرضيًا يعطله بعض الوقت.. رحت أسأله عن موضع محل شهير فى (شبرا) ، وكان بعيدًا عن هذا المكان يحتاج إلى كثير من الشرح .. وبطرف عينى نظرت إلى الناحية الأخرى من الطريق .. أين (محمود) ؟

كان (صلاح) يشير بذراعه ليوضَح شرحه أكثر ..

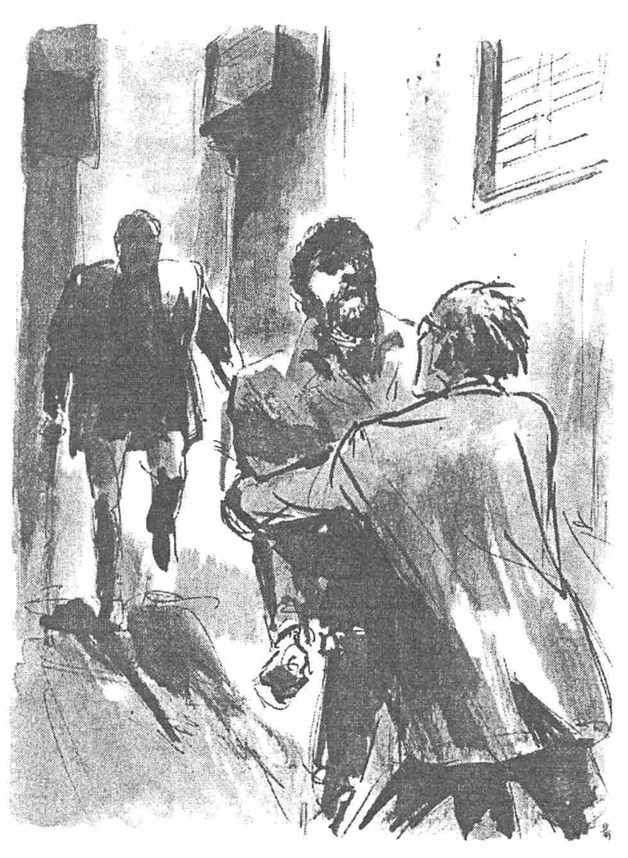
ـ « هل تعرف تلك الصيدلية ؟ تعرفها ؟ ليكن .. ستفارقها وتتجه لليمين وتمشى دون توقف حتى تصل إلى سينما (التحرير) .. سينما ماذا ؟ »

ـ « (التحرير) .. »

ـ « لا بأس .. ومن هناك ..... »

كان خيال (محمود) قادمًا .. وفى اللحظة التالية وثبت على (صلاح) واحتضنته بذراعىَ بطريقة جعلتنى بعيدًا عن متناول قبضتيه .. لن يهرب ..

ـ « ماذا ؟ هل جننت ؟ »



وفى اللحظة التالية وثبت على (صلاح) واحتضنته بذراعى
بطريقة جعلتنى بعيدًا عن متناول قبضته ..

ولكن (محمود) فهم على الفور ، واندفع ركضًا إلى حيث كان جسدانا يلتحمان ، وسمعت صوت اللكمة الأولى كما كان يحدث فى أفلام (فريد شوقى) .. المؤثرات الصوتية لألواح الخشب المتضاربة ، و (حميدو) يقهر اللصوص جميعًا ..

سقطت على الأرض بين الأقدام ، فقد جرحت وأنا أثبت عويناتى على أنفى .. ورأيت الهول ذاته فى صراع الرجلين .. لم يكن صراع غضب أو صراع تحدٍ ، بل هو صراع قتل .. أحد الرجلين يحاول قتل الآخر ..

كان (صلاح) تحت تأثير المفاجأة وعدم الفهم ، و (محمود) كان قويًا بحقٍ .. لهذا سقط (صلاح) أرضًا ، ولم يكن الرفق بعدو ساقط من أخلاق (محمود) اليوم ، لذا راح يركل الجسد فى أكثر المواضع إيذاءً له ..

وهنا تنبهت للمرة الأولى .. لقد صرنا بصدد عملية قتل ..

ـ « (محمود) ! يكفيه هذا ولنطلب الشرطة ! »

لكن سعار الجنون تسلط على المهندس ، زالت كل

مساحيق الحضارة ليتحول إلى رجل كهف يفتك برجل آخر من أجل السيطرة على العشيرة .. »

ـ « (محمود) ! »

وجريت لأجذبه من ذراعه، لكنه انتزعها ووثب فى الهواء ليسقط فوق .. آى !! فوق ضلوع (صلاح) ..

وقف يلهث كثور برى أنهكه الهنود على حين جثوت أنا جوار الفتى الممدَد على الأرض ، وتحسست نبض عنقه .. لا ؟ نبض معصمه ؟ لا ؟ أشعلت عود ثقاب وتفحصت حدقة عينيه .. لا ؟

نهضت زاجف الساقين، وبصوت متحشرج أعلنتها:

ـ « لقد مات ! »

ـ « إنه يتظاهر بذلك .. سيفيق حالاً .. »

ـ « بل هو ميت فعلاً ، ولو كنت أنا عاجزًا عن تمييز الموت بعد ثلاثين عامًا من الطب ، فأنا فى مشكلة حقيقية .. »

هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة .. وقف حائرًا يتأمل (ما أوكته يداه وما نفخه فوه) ، وللحظة حسبته على وشك البكاء ..

ـ « والعمل ؟ »

- « لا عمل سوى إبلاغ الشرطة .. »

- « هل تمزح ؟ »

وتلفت حوله يرمق الشارع الخالى المظلم ، ثم هتف :

- « إن أحدًا لم يرنا ولم يسمعنا وسط هذه الضوضاء . لن يعرف أحد أبدًا ما حدث .. »

ابتسمت فى شفقة لسذاجته ، وقلت :

- « أولاً : ليس هذا ديدنى.. أنا لا أخالف القانون، ولا أتهرب من مسئولية أخطائى .. ثانيًا : من الحمق أن تحسب الشرطة لن تتعرَف الجثة .. إن الفتى له سوابق كثيرة وبصماته عندهم ، ومن السهل أن يعرفوا أن هذا (صلاح) .. ولسوف يجدون أنه قتل على بعد خطوات من دار الفتاة التى كان يهددها ..

وكل المدعوين للزفاف يمكنهم أن يؤكدوا أننا غادرنا الحفل فى الساعة كذا ، وقد بدت الخطورة على وجهينا .. لا يا (محمود) .. لا تحاول إصلاح زلة بجريمة كاملة الأطراف .. »

- « لقد انتهى مستقبلى .. ولربما كانت المشنقة هى ..... »

ـ « لا أظـن .. إن المحـاميـن سـيؤكـدون أنك كنـت تدافع عن نفسك وعن بيتـك ، وتـاريخ الفتـى لا يـترك شكًا فى هذه المقولة .. »

كان ما زال مترددًا ، فجذبته من ذراعه لنبحث عـن أقرب جهاز هاتف ..

* * *

لقـد انتهينا ـ بشكل حاسم جـذرى ـ مـن مشـاكل (صلاح) .. فهل هناك مصدر آخر للمشاكل ؟

* * *

الفصل الخامس : إسهاب شديد .. وأرى أن تنتقل إلى الفصل السادس

لم تطل التعقيدات لحسن الحظ ، فأطلق سراحى أنا بضمان وظيفتى ، ولم يطل الأمر بـ (محمود) كذلك لأن الجريمة استوفت أركان الدفاع عن النفس ..

لكن ما حدث سبب قلقًا هائلاً للجميع ، وبالطبع أفسد ليلة عمر (نجلاء) تمامًا ، مما يدلك بحق على قلة حظها فى كل شىء .. قليلات هن الفتيات اللاتى يستطعن الفخر بأن جريمة قتل ارتكبت فى حفل زفافهن ..

لقد عادت المياه الهادئة تتدفق تحت الجسور ، وبرغم كونى كارهًا للعنف زاهدًا فيه ؛ فقد بدا لى أن ما حدث كان هو الحلَ الوحيد .. إن بتر الذراع المصابة بالسرطان لحلٌ دموى عنيف ، لكنه يظل الحلَ الوحيد حقًا ..

* * *

كان هذا صوت د. (محمد شاهين) فى الهاتف :

ـ « (رفعت) .. لم أسمع صوتك منذ شهرين .. »

كدت أصارحه بأننى زاهد فى كل ما يجعلنى أرى هذه الأسرة ثانية .. اختطاف وقتل ، وصورة المرأة التى تلثم ثعبانًا ، وشاى ينسكب على الأرائك .. كل هذا أقوى منى ..

ـ « كنت مشغولاً بعض الشىء يا (محمد) .. »

ـ « ألن تزور (نجلاء) فى دارها ؟ »

ـ « وهل هذا ضرورى ؟ »

ـ « هى مريضتك وابنتك .. ثم إن المجاملة .... »

هنا وجدت أن هذه المهمة ضرورية .. فى الآونة الأخيرة بدأت أتحول إلى حيوان غير اجتماعى يعشق (الأوكسجين) ويمقت (ثانى أكسيد الكربون) ، ورحت أحاول جاهدًا ألا أنزلق إلى الدرك الذى رحت أنزلق إليه .. لهذا صرت أرغم نفسى على حضور حفلات الزفاف ، وزيارة المرضى ، وأداء واجبات العزاء ..

ـ « ليكن يا (محمد) .. متى وأين ؟ »

ـ « فى الثامنة مساءً .. نفس البيت .. »

ـ « أحقًا ؟ هى لم ؟ »

ـ « إن (كمال) مازال يتحسس طريقه المهنى .. وأبوها وأمها بحاجة إلى رعاية .. وأخوها ما زال طفلاً .. »

ـ « ألم تنجب بعد ؟ »

راح يضحك حتى انقطعت أنفاسه ، وقال :

ـ « (رفعت) ! أنت لست بهذه السذاجة .. لقد تزوجا منذ شهرين .. أنت تعلم أن الحمل يستغرق تسعة أشهر .. »

غلى الدم فى عروقى .. هذا الرجل لن يكف عن السذاجة ، ولن يفهم مزاحى أبدًا .. ولديه الشجاعة كى يخبر طبيبًا بحقيقة أن مدة الحمل تسعة أشهر ..

ـ « ليكن يا (محمد) .. أراك هناك فى الثامنة .. »

★ ★ ★

قرعنا الجرس ، ففتحت لنا (نجلاء) الباب .. خيِّل لى أنها صارت أجمل إلى حدٍ ما ، ثم قررت أن هذا يعود إلى الإضاءة القادمة من اليسار ، والتى كان (رمبرانت) يعشقها .. إنها تجعل الأشياء أجمل دومًا(★) ..

(★) رمبرانت فان راين : فنان هولندى عظيم، هو رائد ما أسموه بـ (القرن الفلامنكى) فى الرسم .. وله لوحة شهيرة جدًا هى (الحارس الليلى) .

كانت الشقة كما هى ، فيما عدا أنهم أعادوا طلاءها بشكل غير دقيق ، وكان هناك (أنتريه) جديد له رائحة (دمياط) ، وجهاز تلفزيون صغير موضوع فوق (بوفيه) ملىء بالزخارف ..

إن هى إلا دقيقة حتى برز لنا (كمال) ، وكان قد تجاوز مرحلة العريس الذى يقابل الضيوف بالروب ، إلى مرحلة مقابلتهم بمنامته ذات الخطوط الخضراء الطولية ، ثم جاء الأب مترنحًا منهكًا ، وجاءت الأم هاشة باشة تحمل صحفة عليها كوبان مليئان بمشروب وردى مخيف ..

تبادلنا التهانى والشكر، ولم ينبس أحدنا بحرف عما كان ، ولم نذكر ما فات لأنه ـ ببساطة ـ قد مات .. فقط وضعت مظروف (النقوط) إياه فى مكان ظاهر ..

سألت (نجلاء) عن أخبار جديدة مفرحة على غرار القىء صباحًا ، فاحمرَ وجهها خجلاً وأغمضت عينيها أن نعم ..

نظرت لها نظرة متسائلة فهمت معناها على الفور، فأغمضت عينيها من جديد ، هذه المرة بمعنى (لا) .. لا لم تعانِ (ناهد) أعراضًا مماثلة فى (أسوان) ..

لقد شفيت الأختان تمامًا كما هو واضح ..

حملت (نجلاء) الصحفة بكوبيها الفارغين ، فانتحى (كمال) ليجلس بجوارى ، وربَت على ركبتى بيده مرددًا عبارات من نوع (آنستنا يا دكتور) ، ثم همس وعلى وجهه علامات الجدية :

ـ « هل يمكن أن أنفرد بك فى الشرفة لبضع دقائق ؟ »

وهى اللحظة التى أخشاها .. لحظة أن يطلب من ألقاه أن ينفرد بى ، ثم يبدأ فى وصف مشكلة حياته المأساوية : غازات البطن أو الإسهال أو الدوار إذا ما نهض من الفراش بسرعة .. ثم لا يقتنع بأى اقتراح أقدمه ..

أسلمت أمرى للَّه وتبعته إلى الشرفة الضيقة ذات السور الخفيض ، الذى يهدد بسقوط واحد منا فى أى لحظة .. وحاولت جاهدًا أن أمنع حزم الثوم المعلقة هناك من خدش صلعتى ، وأزحت بقدمى دراجة أطفال مكسورة بلا عجلات لا بد أن (أخناتون) كان يلعب بها جوار أمه (تى) ..

قلت له بعد ما طال الصمت :

ـ « أهنئك على ولى العهد القادم .. »

ـ « عقبى لك ! »

بدت لى الكلمة عجيبة ، لكنى تجاهلتها ، وعدت أسأله :

ـ « هل أجرت اختبارًا للحمل ؟ »

ـ « لا .. لكن الأمور واضحة ، وعلى كل حال لم أطلب الانفراد بك لهذا ..... »

ـ « إذن ؟ »

ابتلع ريقه باحثًا عن كلمات ثم قال بصعوبة :

ـ « إن (نجلاء) فى حالة غير طبيعية .. أعنى .. ليست مجنونة حتمًا لكن البعض قد يصل لاستنتاجات غريبة لو رأى ما تقوله وما تفعله أحيانًا .. إنها لا تشعر بشىء ، وفى غاية السعادة .. لكن أحدًا لم يخبرنى من قبل بـ ...... »

نظرت إلى الشارع الذى صبغه المساء بلونه الأزرق الأنيق ، وقلت :

ـ « مفهوم.. مفهوم.. وأنت تشعر بأنك خدعت! »

ـ « لا .. أنت لا تفهمنى .. »

وتذكَرت ما خطر لـى من قبـل .. أن مـن لا يعرف ولا يفهم الرابطة الشعورية بين الأختين يمكنه ـ دون عسر ـ أن يتهمهما بالجنون .. لكن لمـاذا لم تصارحه (نجلاء) بالأمر من قبل ؟ »

أجاب على تساؤلى بأسرع مما توقعت :

ـ « لست أتكلم عن مشـاعر (نـاهد) التـى تنتقل لأختها .. بل أتحدث عن شبح (صلاح) الذى يطاردها فى كل صـوب ، فهى لا تنفـرد بنفسـها فـى المطبـخ أو الحمام إلا وتبدأ فى الصراخ .. »

تصلـب شـعر رأسـى المتبقـى علـى الجـانبين ، وقـد أثار كلامه اهتمامى :

ـ « شبح (صلاح) ؟ »

ـ « نعم.. ذلك الفتى الذى ما انفك يلاحق أختها .. إنها تراه فى كـل مكـان وتقـول إنـه ينظـر لهـا نظـرات ثابتة مزعجة .. ثم يتلاشى ما إن يلحق بها أحد .. »

ـ « وتقول إن (نجلاء) سعيدة برغم هذا ؟! »

ـ « وهذا هو الغريب .. إنهـا تصـرخ وتولـول ثـم تنسى الأمـر برمتـه بعدها ، وتضـحك وتمرح .. كـأن ما حدث حدث لواحدة أخرى .. »

بالنسـبة لى كان الأمـر واضحًا .. هذا هو ما يميز

التفاعل الهستيرى الذى يوشك أن يكون مقصورًا على النساء[*] .. الهستيريا هى أصلاً هروب من ضغط نفسانى شديد لشخصية غير ناضجة ، وقد يصل هذا التفاعل إلى أقصى صوره التى تذكرنا بالدكتور (جيكل) والمسز (هايد) ، حين تسيطر شخصية من شخصيتين يملكهما المريض وتحرك قياده دون أن يعرف ذلك .. أما الصورة الأخرى فتأخذ شكل صداع هستيرى .. عمى هستيرى .. شلل هستيرى ..

إن الشلل أو العمى عرضان مخيفان يسببان ذعر أى مريض حقيقى ، لكن مريض الهستيريا يفاجئنا بحالة عجيبة من اللامبالاة .. تصوَر فتاة فى العشرين من عمرها قد أصابها شلل نصفى ، وبرغم هذا تبدو مسرورة أو خالية البال .. هذه نقطة من نقاط عديدة يلاحظها الطبيب ، وتضيف وزنًا إلى عبارته النهائية التى يعلنها بثقة : لا يوجد سبب عضوى للشلل ..

(★) لفظة هستيريا مشتقة من لفظة (رحم) اللاتينية ، وكانوا - قديمًا - يحسبون المرض مقصورًا تمامًا على النساء ، واعتقدوا أن الرحم سببه .. طبعًا لم يعد هذا الكلام دقيقًا ..

هـذا الشـلل هستيرى يحتـاج إلـى مختـص بـالأمراض النفسية ..

قـال لـى إن (نجـلاء) سـعيدة برغـم أعراضهـا المخيفة، وهذا يوضح دون شك أنها رؤى هستيرية.. لم تكن تجربة الاختطاف مريحة بالطبع ، ولـم يـترك لها (صلاح) أية ذكرى باسمة ..

قلت له وأنا أتراجع عن السور كى لا أسقط :

ـ « كل هذا متوقَع بالتأكيد .. ولن يدهشنى أبدًا .. إن ما عاشته لم يكن بالضبط أمرًا سهلاً .. »

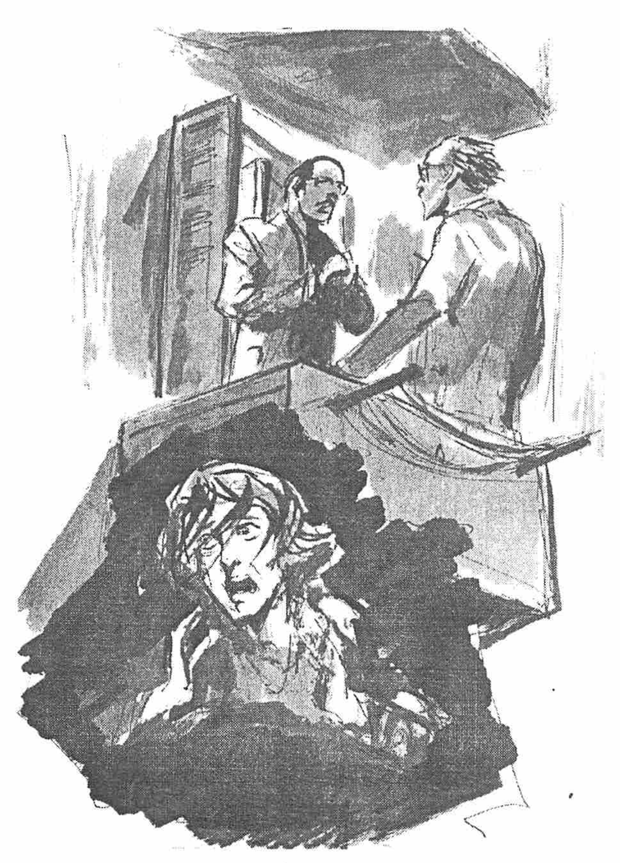
ـ « إذن ترى أن أتناسى الأمر ؟ »

ـ « بلا شك .. إن الحلَ الوحيد هـو أن تذهب بهـا إلى أحد الأطباء النفسيين ، ولدى د. (محمد إبراهيم) صديقى .. لسوف يطلق علـى حالـة (نجـلاء) اسمًا لاتينيًا مكونـًا مـن عشرين حرفًا علـى الأقـل ، وهـو مجهود لا بأس به يستحق أجره عليه طبعًا .. »

هزَ رأسه ، وطقطق بلسانه :

ـ « لا لا .. كله إلا هذا ! »

وكان هذا طبيعيًا ، فهو من الناس العاديين ـ رجـال الشـارع لـو سمحت لى ـ الذين يضعـون الأمـراض



قال لى : إن (نجلاء) سعيدة برغم أعراضها المخيفة ، وهذا يوضح
دون شك أنها رؤى هستيرية . .

النفسية كلها فى سلة واحدة اسمها (الجنون) ، ومعه يغدو شرح الفارق ما بين (العصاب) و (الدهان) عسيرًا نوعًا ..

قلت له وأنا أعود إلى الداخل :

ـ « ليكن .. يمكننى فهم وجهة نظرك ، وإن كنت لا أقبلها .. الحل الأخير فى جعبتى هو أن (تبقى الوضع على ما هو عليه) ، وننتظر .. »

وماذا بوسع أى منا أن يفعله سوى أن ينتظر ؟

فلننتظر .....

* * *

الفصل السادس : ثرثرة طويلة ولن الوم من ينتقل إلى الفصل السابع ..

وانتظرنا .....

★ ★ ★

وكانت هناك أنباء سارَة أبلغنى بها د. (محمد شاهين) :

- لـ (صلاح) أخ أسوأ منه وأكثر غلظة وشراً يُدعى (ماهر) .. وكان فى (فرنسا) منذ زمن منهمكا فى جمع العنب وتدخين سجائر الـ (جولواز) ، حتى طردته الشرطة الفرنسية لأن إقامته انتهت ..

لقد عاد (ماهر) إلى (شبرا) ، وعرف أن أخاه قد مات .. مات ضربًا بعد ما تلقى علقة ساخنة .. والحقَ أننى أفهم لماذا اعتبر الفتى هذه الميتة مهينة لأخيه ..

يقول الجيران إنه راح يولول كالهنود الحمر عندما يهاجمون معسكر الجنرال (كاستر) - وهذا التشبيه من عندى طبعًا - وسقط مغشيًا عليه ، فراحوا يفركون أصابع قدميه ويدلكون صدره العريض بالبصل الذى طوحته إحدى الجارات من الشرفة ..

ثم إنه أخيرًا نهض، وراح يطلق الأناشيد الجنائزية التى تتوعد بالويل ممن صنع هذا بأخيه .. إن دم أخى لن يذهب هباءً .. لسوف يرى هؤلاء الأوغاد ولسوف يلبسون ـ جميعهم ـ الطُرحَ ..

قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أبتلع ريقى :

ـ « ألن ننتهى من أسرة (البلطجية) هذه أبدًا ؟ تلك المجموعة من الشخصيات (السايكوباثية) التى تنسى تمامًا وجود القانون .. »

قال وهو يضحك فى مرارة :

ـ « (سايكوباثية) ؟ لو عرف (ماهر) هذا أنك أسميته (سايكوباثى) لفتح بطنك بمطواته دون مناقشة ، وعلى كل حال أعتقد أنك فى دائرة التهديد على كل حال .. »

قلت بشجاعة حقيقية :

ـ « هذا سبب كاف كى لا أزور (شبرا) لعدة قرون.. وماذا عن رجال الشرطة؟ ما رأيهم فى هذا؟»

ـ « إن الفتى يكتفى بإطلاق التهديدات ، لكنه لم يفعل شيئًا ، وليس ما فى الضمائر جريمة يحاسب عليها القانون .. عليه أن يفعل أولاً .. »

- « أى يبدأ بتهشيم رأسى ؟ »

- « ربما .. لكنى أخبرتك بهذا كى تكون حذرًا .. لقد أبلغت (محمود) بدوره ، وهو حانق تمامًا .. لكنه لم يخبر (ناهد) بسبب حملها .. »

- « (ناهد) حامل ؟! »

- « وفى الشهر الرابع .. عقبى لك ! »

ووضعت سماعة الهاتف حائرًا :

- « (ناهد) حامل .. لماذا لم يقل أحد هذا قط ؟ إذن يمكن القول إن الفتاتين حاملان فى الفترة ذاتها ، وهذا يسبب قدرًا من الخلط دون شك .. من هى صاحبة مشاعر الغثيان و (الوحم) وما إلى ذلك ؟ »

وهنا راحت فكرة عجيبة بعض الشىء تراودنى ..

★ ★ ★

- « هل أجرت اختبارًا للحمل ؟ »

- « لا .. لكن الأمور واضحة ، وعلى كل حال أنا ...... »

★ ★ ★

ومن جديد طلبت د. (محمد شاهين) فى داره :

- « د. (محمد) .. هل أجرت (نجلاء) اختبارًا للحمل ؟ »

- « لا .. لكن هل يوجد سبب آخر لإصابة عروس بالغثيان والقيء صباحًا ؟ »

- « يا لكم من حمقى ! »

ووضعت سماعة الهاتف ، وقررت أن أفعل أى شيء فى حياتى سوى التفكير فى هاتين الأختين ، وحكاياتهما المعقدة ..

وفى الأيام التالية انهمكت تمامًا فى قضية الفتى الذى يحرّك الأشياء عن بُعد .. أنتم تذكرونها طبعًا .. ماذا ؟ لم أحكها بعد ؟ حسن .. ذكرونى بذلك فى المرات القادمة ..

أقول إننى انهمكت تمامًا ، وسافرت مرتين إلى قريتى على سبيل العودة إلى الجذور ، ثم عدتُ لأجد (محمد شاهين) ينتظرنى وقد احتقن وجهه البدين كأنه سيصاب بنزف مخىّ ..

- « النتيجة سالبة ! »

- « نتيجة ماذا ؟ »

- « (نجلاء) طبعًا .. »

- « (نجلاء) من ؟ »

هنا بدأت مخايل السكتة القلبية تبدو عليه ، وازدادت عيناه جحوظًا :

- « (نجلاء) ابنة أختى طبعًا .. ماذا دهاك ؟ »

تثاءبت، وفتحت أحد الخطابات الملقاة على مكتبى، وقلت :

- « هذا شىء أعرفه منذ زمن .. أنتم مجموعة حمقى لا أكثر .. ولقد مرَت (نجلاء) بأعراض الحمل كلها قبل أن تتزوج ، لأن (ناهد) أختها شعرت بها ، وبرغم هذا لم يخطر لأحدكم أن يجرى اختبارًا لـ (نجلاء) الآن .. (الأمور واضحة) .. هذا كل ما قاله زوجها لى .. إن التاريخ يكرَر نفسه لأن الحمقى لم يصغوا إليه فى المرة الأولى .. »

شرب كوبًا من الماء كعادة الموشكين على الموت ، وقال :

- « ليكن .. نحن حمقى .. لكن ما قولك إذا كانت (ناهد) لم تشعر بشىء على الإطلاق ، واكتشفت حملها بالصدفة ؟ »

توقفت عن فتح الخطاب ، وتصلَبتُ :

- « ماذا تعنى ؟ »

- « أنت سمعتنى جيدًا ! »

- « (ناهد) لم تعايش أعراض الحمل ؟ »

- « بالتأكيد ! »

هنا أسقط فى يدى .. من أين جاءت (نجلاء) بهذه الأعراض الزائفة إذن؟ هناك حالة نفسية يعرفها أطباء النساء جيدًا ؛ حين تنقطع الدورة الشهرية للمرأة ، ويبدأ بطنها فى الانتفاخ ، وتمرَ بأعراض الحمل الهضمية المقيتة ، ثم يتضح أنه لا يوجد حمل .. وأن انتفاخ بطنها هو غازات احتبست لا شعوريًا فى القولون .. ويُسمَى هذا المرض بـ (الحمل الكاذب) أو - طلبًا للرطانة - (سودو سايبزس) ..

المشكلة أن هذه الحالة تصيب - فقط - النساء العقيمات المتقدمات فى العمر ، واللاتى يتحرقن شوقًا للأمومة .. فما دور (نجلاء) هنا ؟!

بالطبع لا بد من البحث عن تفسير آخر فى مكان آخر ..

نظرت بغباء إلى (محمد) وغمغمت :

- « لا أعرف ما أقول.. حقًا لا أعرف ما أقول ..»

★ ★ ★

كان الأمر بحق يفوق قدرتى على الفهم ..

ها هى ذى (نجلاء) تمارس (الكوفيد) الذى

تحدثت عنه فى الكتيب السابق ، لكنه (كوفيد) حقيقى وليس رمزيًا معنويًا كالذى أعرفه .. الحامل الحقيقية فى أتم صحة وأوفر عافية ، بينما أختها ـ غير الحامل ـ لا تكف عن الأنين والغثيان ..

والأغرب هو ما راح يحدث لـ (نجلاء) فى الأيام التالية .. تكررت ظاهرة الآلام التى لا سبب لها ، ومنها ما هو بسيط كآلام الكاحل أو الظهر ، ومنها ما هو عنيف مصحوب بكدمات ..

كان تفسير هذا سهلاً فى البداية : (ناهد) قد استعادت ربطتها الشعورية بأختها برغم بعد المسافة، وها هى ذى تمرَ ـ حتمًا ـ بأوقات عصيبة ..

لكن هذا التفسير تهاوى سريعًا إثر مكالمة من د. (محمد شاهين) لـ (محمود) فى (أسوان) .. اتضح على الفور أن (ناهد) لم تشكُ من شىء ، وخاصة تلك الإصابة العنيفة فى الكتف التى تعوى (نجلاء) ألمًا بسببها ..

ما معنى هذا ؟ هل جُنَت (نجلاء) ؟

كان بوسعى أن أقول هذا ، وأن أتهمها بالكذب أو الجنون ، لو لم أر موضع الإصابة بعينى : كدمة

زرقاء هائلة مخيفة الشكل ، وفى موضع عسير حقًا أن تحدثه هى بنفسها .. إن الجروح التى يحدثها المرء فى جسده تكون دومًا فى متناول يديه ..

ثمة احتمال لا بأس به أن تكون (نجلاء) قد ضربت بكتفها جسمًا بارزًا ـ كمقبض الباب مثلاً ـ متعمدة إحداث هذه الكدمة ، لكنى لا أجد فى هذه الفتاة الهشة قوة كهذه .. إن للجسم البشرى حدوده ، حتى لو كانت تسكنه روح مجنونة ..

ـ « (نجلاء) .. هل أنت متأكدة من أن هذه الإصابة لم تحدث ، ثم نسيتِ أنتِ سببها ؟ »

ـ « ياله من سؤال ! هل يمكن لى أن أنسى إصابة كهذه ؟ »

ـ « هل يوجد نزف من أنفك أو لثتك ؟ »

ـ « لا .. »

فقط فى أمراض الدم النزفية ـ وسرطان الدم طبعًا ـ يمكن أن يجد المرء فى جسده كدمات كبيرة كهذه بلا تفسير .. لكن ـ فى تلك الحالات ـ لا يصاحب الكدمة ألم كالذى تشعر به .

وعلى كل حال ، قمت باستبعاد هذا الاحتمال



كان بوسعى أن أقول هذا ، وأن أتهمها بالكذب أو الجنون ، لو لم أر موضع الإصابة بعينى : كلمة زرقاء هائلة مخيفة الشكل ..

بعناية .. إن وظائف تجلط الدم وتخثره الخاصة بها على ما يرام ..

وجاء حل المشكلة سريعًا ، ولكن بعد ما يئسنا من إيجاد تفسير .. جاء فى خطاب من (محمود) أرسله من (أسوان) .. كان يحكى عن شمس (أسوان) الدافئة والسدَ العالى .. إلخ .. إلخ .. ثم حكى لنا – أعنى لأقارب (ناهد) – عن الحادث الرهيب الذى كاد يفتك بـ (ناهد) لولا أن سلّم اللّه ..

لقد كانت تعبر الشارع شاردة الذهن ، حين اصطدم بها (حنطور) مُسرع ، فسقطت أرضًا واصطدمت سنابك الخيل بكتفها .. والغريب أن شيئًا لم يحدث ، وأن الإصابة لم تحدث بها ألمًا من أى نوع ..

يقول (محمود) :

– « ظلت فى الفراش أسبوعًا كاملاً تحت تأثير الرعب لا الألم ، ولم أخبركم بشىء حتى لا تطير أنفسكم شعاعًا .. الآن فقط يمكننى أن أحكى لكم بعد ما انتهى الموضوع ، وتأكدت من عدم وجود ضرر ، وتأكدت من سلامة الحمل .. »

« وللمصادفة – القلوب عند بعضها – اتصل بى

د. (محمد شاهين) خال (ناهد) ليقول لى إن كتف (نجلاء) يتألم .. هذه المرَة أنا واثق من أن موضوع الشعور المشترك بين الأختين انتهى ، وأن سفرنا إلى (أسوان) كان هو العلاج الناجع للمشكلة .. لهذا لا أجد تفسيرًا سوى أن (القلوب عند بعضها) .. حمدًا للَه .. ولتدم هذه المحبة بيننا ! »

« كيف حالك يا حماتى ؟ لقد بحثت فى (أسوان) كلها لك عن ..... »

انتهى الخطاب ، وما بقى هو هراء معروف .....

ما معنى هذا ؟

تبادلت النظرات مع د. (محمد شاهين) والخطاب فى يدى ..

ما معنى هذا ؟

سؤال مهم ، لكن إجابته غريبة .. بل أقرب إلى السخف ..

أخيرًا قالها د. (محمد) ، وهو يأخذ الخطاب من يدى كى لا أطالع أسرارًا عائلية ليست من حقى (ويعلم اللَه أننى لا أهتم بها أصلاً) .

ـ « هل كوَنت رأيًا ؟ »

قلت وأنا أتحاشى نظراته المذهولة :

ـ « يمكن تلخيص الموقف فى عدة نقاط :

« ١ ـ (نجلاء) تشعر بأشياء لم تحدث لها .

٢ ـ (ناهد) ليست هى صاحبة هذه المشاعر .

٣ ـ (نجلاء) شعرت بالحمل بينما (ناهد) لم تشعر به .. وفى النهاية (ناهد) هى الحامل لا (نجلاء) .

٤ ـ (ناهد) أصيبت فى حادث ، ولم تشعر حتى بألم ، بينما (نجلاء) هنا تتألم بعنف وقسوة .. »

ثم عقدت أناملى تحت ذقنى لأبدو خطرًا ، وقلت :

ـ « أعتقد أن الظاهرة تتخذ منحى جديدًا .. »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى أن (نجلاء) لم تعد تشعر بما تشعر به (ناهد) فحسب .. بل وتشعر الآن بما لم تشعر به (ناهد) كذلك .. وبعبارةٍ أدق : لقد صارت (نجلاء) هى التى تتألم وتعانى بدلاً من شقيقتها ! »

* * *

الفصل السابع : لا جديد فيه .. ويمكن أن ننتقل للفصل الثامن ..

ـ « هذا ما كنت أتوقعه ! »

كذا صاحت (نجلاء) فى جنون حين أخبرتها بالاستنتاج الغريب ..

ـ « (نجلاء) .. إن ما يُقال بالصراخ يمكن أن يُقال بصوت خفيض .. »

هذه المرَة كانت الدموع فى عينيها .. دموع الغيظ .. دموع من ظلم ظلمًا بينًا :

ـ « هذا ما كنت أتوقعه ! إن (ناهد) مخلوقة أنانية كريهة ، وقد ظلت طيلة حياتها تجلب لى المشاكل ، وتفوز بكل شىء .. اليوم هى قد وصلت إلى الوضع الأمثل لها : أنا أتألم بدلاً منها ! »

تذكَرت قصة (الأمير والصعلوك) حين كان للأمير وصيف مهمته أن يُجلَد بدلاً منه ؛ كلما ارتكب الأمير خطأ يستحق الجلد عليه من أبيه أو مُعلَمه .. هذا الوضع شبيه بحالتنا إلى حدَ كبير ..

قلت لها :

ـ « ليس للأنانية دور فى الموضوع .. وهى لم تختر هذا الوضع .. لقد اختارت الطبيعة وضعًا متميزًا لإحدى التوءمين ، وحتى فى التوائم السيامية يحدث أن يحتكر أحد التوءمين النمو كله ، بينما يتضاءل التوءم الآخر ، ليتحوَل إلى مجرَد ثألولة أو ورم فى جسد أخيه .. »

ـ « والحل ؟ »

سألتنى فى يأس ، فقلت لها بعد تفكير :

ـ « إن الوضع لم يصل للاستقرار بعد .. ما زالت حالتكما المريبة هذه فى طور التحولات .. وعلينا أن ننتظر .. »

ـ « ننتظر ؟ كل ما نفعله أن ننتظر .. »

ـ « (نجلاء) .. لو كان قرص الدواء الذى ينهى حالتك فى جيبى ، فلا يوجد أى سبب يمنعنى من إعطائك إياه حالاً .. »

★ ★ ★

على أننى فى تلك الليلة قرَرت أن الأوان قد حان لأستعين بمن هم أقدر منى وأكثر علمًا ..

كنت أعـرف أن د. (إيجـور تاركوفسكى) صديقنا القديم ـ هـل تذكرونه وتذكـرون ثلاثيـة قارنى الأفكار إياها ؟ قد ترك (مركز بحوث المخ) فى (مانهاتن) ، وانتقـل مع أسـرته إلـى (سـاوث كارولينـا) ليعمـل تحت إشراف واحـد من أهمَ وأعظـم علمـاء مـا وراء الطبيعـة فى عصرنا ، ألا وهـو عالم النفس الأمريكـى (جوزيف بانكس راين)(*)..

جلست وكتبت خطابًا لـ (إيجور) أحكى فيـه قصـة الأختين العجيبة ، وطلبت رأيه ، فإن لم يكن لديه رأى فليسأل أستاذه العظيم ..

وبعد أيام جاءنى المغلف الأنيق الذى ألصقت عليـه طوابع تمثل الآنسة (حرية) التى تحرس المدخل إلـى (الولايات) ..

كان الخطاب من (إيجـور تاركوفسـكى) ، ويقـول فيه :

(*) شخصية حقيقية .. والتواريخ كذلك .

جامعة (دوك)

معمل الباراسيكولوجى

عزيزى د. إسماعيل

تلقيت - بمزيد من شغف ــ خطابك ، وسرَنى أن صاحب الصولات والجولات فى عالم ما وراء الطبيعة يطلب رأيى .

فى البداية أحبَ أن أصحح خطأ بسيطًا : أنا لا أعمل مع البروفسور (راين) بل أعمل على الأسس التى وضعها ، قبل أن يستقيل من جامعة (دوك) ليعمل فى مشروعه الخاص الذى سمَاه (مؤسسة بحوث طبيعة الإنسان) ، وكان هذا عام ١٩٦٥ أى قبل مجيئى بدهر..

إن معمل الباراسيكولوجى هنا تم إنشاؤه عام ١٩٣٠ ، وهو معمل محترم يحاول تطبيق الأساليب العلمية الصارمة على ظواهر النفس ، ونحن نستعين بالكثير من الإحصاء وقوانين الاحتمالات وميكانيكا الكمّ كى نفسر أشياء لا نعرف عنها سوى أقل القليل..

يسهل على المرء أن يفقد يقينه بجدوى ما نفعله.. يسهل أن يعتبرنا مجموعة من الحمقى ضلوا السبيل.. لكنى سأكون آخر من يقنط .. لقد كنت أنا نفسى

ظاهرة غريبة من تلك الظواهر يومًا ما ، وإننى لمستعد لتصديق أى شىء يقال فى هذا الصدد ..

لقد قابلنا كثيرًا جدًا من ظواهر التطابق الشعورى بين التوءم ولا أجد غرابة فى هذا ..

الغريب حقًا هو ظاهرة (إزاحة الشعور) هذه ، فهى جديدة لم أسمع عنها قط ، والأمر فيما أراه جدير بدراسة مدققة ..

إذن أمامك حلاّن :

الأول : هو أن ترسل التوءمين إلى (الولايات المتحدة) ، ولسوف تقوم (رابطة الباراسيكولوجى) الأمريكية بتمويل نفقات سفرهما .

الثانى : هو أن تنتظر ثلاثة أشهر ، لأننى فى طريقى إلى (كوريا) لحضور مؤتمر علمى مهمّ ، ويمكن أن أتوقف يومين فى (القاهرة) .

أبرق لى بردك أو اكتبه فى خطاب .

باخلاص

د. ا. تاركوفسكى

* * *

كان جوابى هو أننى أفضل الانتظار ، لأنه من المستحيل طبعًا أن أطلب من الفتاتين السفر إلى (الولايات المتحدة) لتكونا فأر ى تجارب فى معامل جامعة (دوك) ، حتى لو كانت هذه سياحة مجانية ..

★ ★ ★

طلب منى (مختار) ـ صديقى المحامى ـ أن أمرَ عليه فى المكتب لشأن مهم ، وعرفت على الفور أن هذا بخصوص (نجلاء) التىصرت أنا وكيل أعمالها كما يبدو ..

توجهت إلى مكتبه فى التاسعة مساء كما طلب، ولم يكن هناك فى قاعة الانتظار سوى ابن بلد فظ يوحى بأنه جزار ضرب زوجته بالشاطور .. وجاء (كمال) من غرفة الأستاذ ، فما إن رآنى حتى تهلل وصافحنى بحرارة ، ثم جلس جوارى تعبيرًا عن الودَ. فسألته :

ـ « كيف الأحوال عندك ؟ »

ـ « على أسوأ حال .. وأنت ؟ »

ـ « سيئ كالعادة .. كيف حال الرؤى ؟ »

ـ « مستمرة .. والآلام لا تتوقف .. »

ـ « وأين هى الآن ؟ »

ـ « إنها تعود للدار فى الرابعة عصرًا ، وأصارحك

أننى لم أعد متحمسًا لعملها .. ربما كان البيت خيرًا لها .. »

ـ « لكن العمل يبقيها بعيدًا عن ذاتها وعن ذكرياتها .. »

هنا انفتح الباب وبرز (مختار) ليرحب بى بصوته الجهورى ، ويدعونى إلى الدخول .

ـ « أنا هنا يا أستاذ منذ ساعة ثم ..... »

قالها الزبون الفظ محتجًا ، وهو يرمقنى شذرًا ، وأدركت أنه على وشك فتح بطنى أنا فى أية لحظة ..

ـ « أصبر يا معلم.. أريد أن أكون رائق البال حين نناقش قضيتك »

وشدنى من ذراعى ، فأطلق الزبون نفخة هواء كادت تطيرنى ..

وانغلق الباب دوننا ، فسألت (مختار) :

ـ « إنك تتعامل مع عينات بشرية غريبة .. هذا الرجل مذنب ـ لا أدرى بأى شىء حقًا ـ ويمكن لأى قاض أن يتبين هذا .. »

ضحك وهو يجلس وراء مكتبه ، وقد طوح برأسه للخلف وفكه للأمام :

ـ « ليس الأمركما تظن..إنه جاء ليرفع قضية على من اعتدى عليه بالضرب ! والآن دعنا فيما أردت أن أحدثك فيه ، تلك الفتاة (نجلاء) .. هل هى ؟ »

وحرَك أنامل يده المفتوحة جوار جبهته بإيماءة معروفة معناها الجنون ، فقلت فى كياسة :

ـ « لا .. ما كنت لـ ..... »

ـ « قل الحقيقة يا (رفعت) ! »

ـ « ليست مجنونة.. لنقل إنها مصابة بـ (الغُصاب) وليس (الذُهان) .. »

ـ «حلاوتك!»ـ وضرب المكتب بقبضته ـ (غُصاب) و (ذُهان) ! حقًا يا له من فارق كبير ! بالنسبة لى يا (رفعت) أنا لا أفهم إلا ما أراه .. فتاة لا تكف عن الصراخ دون سبب .. أتركها وحدها دقيقة ولسوف تجنَ هلعًا .. لا تتركها وحدها تجدها تصرخ ألمًا دون أن يمسسها أحد .. كل هذا كثير .. كل هذا لا يليق بمكتب محاماة محترم .. »

ثم ابتلع ريقه ، وبصوت أكثر هدوءًا قال :

ـ « أنا لا أريدها عندى .. لكنى لن أتخذ أية خطوة ما لم أتأكد من أنك موافق .. فلن أنسى ما قدمت لى من خدمات .. »

قلت لنفسى : لا بأس .. الزوج كان ينوى هذا على كل حال ..

وله قلت :

- « ليكن .. أنت أدرى بمصلحة هذا المكتب .. افعل الصواب .. »

هنا انفتح الباب ليثب (كمال) إلى الداخل مذعورًا ، وقبل أن أفهم.كان قد تشبث بربطة عنقى ليقول فى هستيريا :

- « لقد .. لقد .. (نجلاء) ! تعال حالاً يا دكتور! »

فى برود قال (مختار) وهو يسترخى فى مقعده :

- « كما ترى ! الأمور انمعتادة هنا .. اذهب معه ولسوف أتصل بك .. »

وانطلقنا خارج المكتب ، وفى المصعد قال لى لاهثًا : إن الجيران اتصلوا به ليبلغوه أن (نجلاء) ابتلعت أقراص الإسبرين لتنتحر ..

يا للحمقاء !

* * *

وجدتها بكثير من العسر وسط مئات الجيران وأطفالهم الذين احتشدوا فى غرفة النوم ، حتى

تذكَرت أتوبيس (٣٠٥) الذى كان يمرَ فى هذه اللحظة قرب دارها ، وتوقعت أن يمرَ المحصل بتذاكره أو أن أسمع من يقول : (العربية فاضية قدام يا حضرات) ..

كانت نائمة أو فاقدة الوعى ، وجوارها ما يسميه الطب الشرعى بـ (الدليل العرضى)، وهو - هنا - عدة أوراق خضراء كانت تحوى الإسبرين الذى ابتلعته ..

وأطلقت الأم صرخة حارَة مولولة مستغيثة ملتاعة مقهورة :

- « يا حبيبتى يا بنتى ى ى ى ى ! »

كان هناك كوب من الماء بقى بعض الملح فى قاعه مما جعلنى أعرف أنها تقيأت بالفعل ، وتحسست نبضها .. كل شىء على ما يُرام ..

رفعت صوتى كى يسمعنى أحد خلق اللّه :

- « هل ابتلعت الأقراص هنا ؟ »

ضربت الأم بكفها على صدرها :

- « نعم .. نعم نعععععععم ! »

أمسكت بالأوراق الخضراء ، وعددت الثقوب .. عشرة ثقوب لا أكثر .. إن هؤلاء المنتحرين يعانون جهلاً مطبقًا بعلم السموم ..

لقد رأيت كثيرًا من حالات الانتحار ، وأكثرها كان تهويشًا لا أكثر من شخصيات مضطربة .. عندها كنت ترى المنتحر يركض ركضًا ـ حتى ليسبق كل من حوله ـ جاريًا إليك ، وهو يولول فى ذعر :

لقد انتحرت ! لقد انتحرت !

وباستجوابه يتضح أنه ابتلع قرصين من الإسبرين فى حين نعالج بعض مرضى الحمى الروماتزمية بستة عشر قرصًا يوميًا من الإسبرين !

لكن (نجلاء) لم تكن (تهوّش) .. هى فقط تجهل علم السموم ، ولحسن الحظ أنها لم تجرب إحدى الطرق المصرية المحبّبة ؛ على غرار إشعال النار فى النفس بموقد (الكيروسين) ، أو قطع شرايين المعصم، أو شرب زجاجة (بوليس النجدة) ..

قلت للأم وأنا أنهض :

ـ « لا تقلقى.. إن عشرة أقراص لا تؤذى بعوضة، وفى الغالب هى قد تقيأت الكمية كلها .. سأكتب لها دواء للمعدة يمنع ما ابتلعته من تمزيق غشائها المخاطى .. »

وللنسوة الشمطاوات المحتشدات ، وكلهن نهم إلى رؤية مصيبة أو سماع فضيحة ، قلت :

ـ « الآن إنصرفن مشكورات .. وعلى من ترغب منكن فى الانتحار مستقبلاً أن تقفز من السطح ، فهذا يعطى نتائج رائعة ! »

نظرن لى كأننى مجنون بعيون تقطر سمًّا .. ومصمصن بشفاههن ، وجذبت كل واحدة طفلها الحافى الذى يتدلَّى المخاط من أنفه ، وبرطمت بالدعاء علىَّ، ثم لثمتْ الأم بشفتين لزجتين :

ـ « هل تريدين شيئًا يا حبيبتى ؟ قلبى عندك ! »

وهكذا بدأ الأوكسجين ينمو على استحياء فى الغرفة ..

* * *

وقف (كمال) جوار باب الحجرة عاقدًا ذراعيه على صدره .. كان غاضبًا مهمومًا كارهًا لكل شىء .

الحق إنه لموقف مؤسف ، وشممت رائحة سبب لا يمكن تصديقه لغضبه ، لكنى واثق من أنه كان هناك : كيف جرؤتْ على الانتحار دون أن تطلب إذنه ؟

عسير على أى رجل أن تنتحر زوجته على كل حال ..
إن هذا يلصق به تهمة الافتراء والتوحش أو الغلظة ..

كان (كمال) غاضبًا ، واستطعت فهم أسبابه ..

جلست جوارها ولدغت خدَها بأظفارى حتى فتحت عينيها الحمراوين بلون الدم، من فرط البكاء والقىء ..

قالت العبارة الخالدة التى أهلكتها الأفلام العربية :

ـ « اتركونى .. دعونى أمُت ! »

واصلت اللدغ بقسوة ، وقلت :

ـ « كنا نرجو ذلك ، لكن عشرة أقراص من الإسبرين لم تكن كافية للأسف ، وعلى كل حال مازلت لا أفهم السبب .. »

ـ « إنها تلك الآلام .. تلك الرؤى .. كل شىء ! »

وانفجرت فى البكاء والمخاط ، بينما الأم تردّد دون انقطاع عبارات فعالة فى طرد الأشباح والعفاريت .. تلك العبارات التى لو سمعها الأب (ميرين) فى رواية (طارد الأرواح الشريرة) لطار فرحًا(*) ..

(*) طارد الأرواح الشريرة : رواية رهيبة للأديب الأمريكى لبنانى الأصل (وليام بيتربلاتى) . وقد قدمت فى فيلم أحدث ضجة (لم يعرض فى مصر) .

قلت لها فى نفاد صبر :

ـ « ليكن .. أنت تتعذبين .. لكنك تحاولين الفرار من العذاب إلى الجحيم المطلق ، ولو انتحر كل المعذبين فلن تجدى من يدفنك .. إنها فكرة حمقاء ، وما كنت أظنك بهذا السخف .. »

لكنى كنت أعرف أن المنتحر ـ حقيقة لا تهويشًا ـ هو ببساطة شخص مجنون .. شخص وصل لحالة من الجنون اللحظى يستحيل فيها أن يتعقَل .. وعرفت مدى الألم الذى اعتمل فى نفس هذه الفتاة ..

قلت لها بخشونة :

ـ « لو أردت الانتحار فافعلى .. إن رحيلك سيزيد من بهجة الحياة ، ويعالج الزيادة السكانية ، ويحسَن موارد الدولة بما لا يُقاس .. لن يخسر أحد شيئًا سواكِ على كل حال .. »

ـ « د. (رفعت) .. لا تقسُ علىَ أرجووووك ! »

وراحت تنهنه كالعادة .....

مسحتُ مخاط أنفها بطرف الملاءة ، ثم نهضت عازمًا على الانصراف .. لكن وجه (كمال) لم يرحنى ..

عرفت أنه يفكر فى أمـر خطـير .. عسير عليـه أن يتحمل كل هذه الفضائح وكـل هـذه الضوضـاء ، وبمـا أنه رجل تقليدى سيكون ردَ فعله تقليديًا ..

سألنى بوجهه الكظيم :

ـ « هل كل شىء على ما يُرام يا د. (رفعت) ؟ »

ـ « بالتـأكيد .. »

ـ « هل هى بخير ولا خوف عليها ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « أى أنـها تتحمل جيدًا الآن ؟ »

ـ « لا أدرى ما الذى ..... »

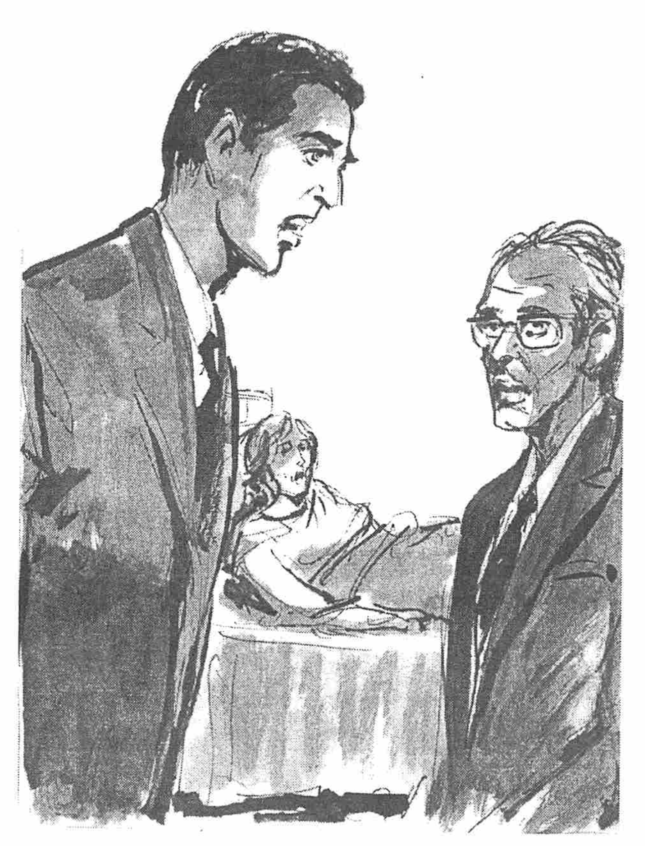
قـال دون أن ينظـر لأى شـىء .. لا لـى ولا لهـا ولا للأرض ولا للسقف :

ـ « حسن .. هى طالق منذ هذه اللحظة ! »

ودون كلمة أخرى غادر الغرفة ..

هـذا الفتى ـ كما ظننت دائمًـا ـ يهوى مشـاهدة الأفلام العربية ..

★ ★ ★



قال دون أن ينظر لأى شىء .. لا لى ولا لها ولا للأرض ولا للسقف : « حسن .. هى طالق منذ هذه اللحظة ! » ..

الفصل الثامن : أحداثٌ متوقعة .. ولو كنت مكانك لانتقلت للتاسع

كدت أذكِره بأنه لم يطلقها ثلاثًا ، وبهذا ما زالت لديه فرصة لإرجاعها لعصمته .. ثم قررت أن الصمت قد يكون أفضل ..

★ ★ ★

لن أصف المشهد الميلودرامى العنيف الذى تلا هذا .. إن هذه الأمور تحطم الأعصاب على كل حال..

لن ألومه ـ وكيف ألومه ؟ ـ ولكنى ألومها .. لقد بلغ بها الألم ذروته ولم تجد إلا حلاً واحدًا .. والحلَ كان غير مرضٍ لأى طرف .....

وهكذا غادرت المنزل ، وقد قررت أن أزور الفتى عند (مختار) كى أحاول إصلاح الأمور.. إن (نجلاء) حمقاء مزعجة لكننى أحبَها كابنة لى، وما زلت أجدها تستحق ما هو أفضل ..

أين أنت يا (إيجور) ؟

★ ★ ★

وفى صالة الاستقبال بالمطار وقفت ــ وقد جاء الميعاد ـ حاملاً لافتة كبيرة كتب عليها بحروف لاتينية (دكتور إيجور تاركوفسكى) ، فبدا مظهرى كأحد مندوبى شركات السياحة ينتظر فوجًا من (نيام نيام)..

الغريب هنا أننى لم أر (إيجور) قط ، ولا أعرف كيف يبدو ..

فقط علىَ أن أبحث عن شخص له سمات (شرق أوروبا) ، وله أنف عملاق عجيب .. هكذا وصف نفسه ..

كان الزحام شديدًا ، ورحت أبحث بين الخارجين من البوابة عن أى وجه يصلح .. تلك المرأة .. لا ؟ هذا الطفل ؟ صعب .. هذا الكهل ؟ لا ..

ثم رأيته أخيرًا .. من العسير أن تخطئه العين حقًا .. أكبر أنف يمكن أن تراه فى نصف الكرة الشمالى بعد المرحوم (سيرانو دى برجيراك) .. أنف يذكرك ببيتىَ (ابن الرومى) العبقريين :

حملت أنفًا يراه الناس كلهم

من ألف ميل عيانًا لا بمقياس

إن شئت كسبًا به صادفت مكتسبًا

أو انتصارًا مضى كالسيف والفاس

أى إنه أنف صالح لكسب الرزق ، وصالح للحرب كذلك ! فيما عدا هذا كان وجهه مليحًا قسيمًا يذكرنى على الفور بوجوه أهل (رومانيا) أو (بلغاريا) أو .....

لمح اللافتة أخيرًا ، فدنا منى ، ولا بد أنه كان يردد فى ذهنه أبياتًا من الشعر البولندى تصف صلعتى ونحولى الشديد ..

بإنجليزية متأمركة لا أثر للكنة أجنبية فيها، سألنى:

ـ « د. (إسماعيل) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « د. (تاركوفسكى) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « طالما تصورتك فى شكل مختلف قليلاً .. »

ـ «لحسن الحظ أنك لست فتاة، وإلا لماتت رعبًا ..»

نظر حوله .. ثم سألنى بطريقة عملية جدًا :

ـ « أين الموضوعان ؟ »

وهى طريقة يوحى بها بالتجرد العلمى ، فقلت له باسمًا :

ـ « ليس بهذه السرعة .. إن الحماس شىء جميل أفتقر أنا له ، لكن ليس إلى هذا الحد .. يجب أن تستريح أولاً .. »

ـ « المشكلة هى أن وقتى ضيق ، وعلىَ أن أطير إلى (كوريا) غدًا .. »

ـ « إذن تذهب لفندقك ، ولسوف أعود لأصطحبك في السادسة مساءً .. »

★ ★ ★

رتبت اللقاء في مكتبي بالجامعة ......

يجب أن أقول هنا: إنني كنت قد اتصلت بـ (محمود) في (أسوان) طالبًا حضور (ناهد) على وجه السرعة ، لأن خبيرًا أمريكيًا (في هذه الأشياء) قادم بعد أسبوع ..

إن أنانية الإنسان ولا مبالاته تثيران حنقي دومًا .. لقد تعلمت ألا أندهش لشيء ، وتعلمت أننا جميعًا حفنة من الأوغاد لن ينقذهم من عذاب جهنم إلا رحمة ربي ..

لكن ليس إلى هذا الحد !

لقد قال لي (محمود) في برود :

ـ « هل تعلم كم يرهقنا السفر إلى (القاهرة) ماديًا ومعنويًا ؟! »

ـ « هذا الرجل قد يملك الحلَ لمشكلة الأختين .. إنه تلميذ (راين) شخصيًا .. تصوَروا هذا ! تلميذ (جوزيف بانكس راين) ! »

- « حتى لو كان تلميذ (ابن سينا) شخصيًا ، فهذا لن يجعل الانتقال أكثر سهولة .. »

كنت أعرف نقطة الاختلاف الأساسية هنا ، والتى يحاول ألا يفصح عنها لى : لقد صارت (ناهد) على ما يُرام بل هى وجدت من يتألم ويتعذب بدلاً منها .. إذن ما دورهما فى المشكلة ؟ لقد انتهت متاعبه ومات (صلاح) ، وكفت (ناهد) عن العذاب .. لماذا ينبغى أن يعطل أعماله ويحضر زوجته لتصير فأر تجارب عالم أمريكى من تلاميذ (راين) ؟

غلى الدم فى عروقى .. أنا أمقت هذه الفلسفة النفعية مقتى لجهنم ، ولهذا قلت له ضاغطًا على كلماتى :

- « (محمود) .. أنا لا أمزح .. إن (نجلاء) فى جحيم مقيم ، بل حاولت الانتحار مرّة ، ولسوف تنجح حتمًا فى المرة الثانية ، وشفاؤها يحتاج إلى أن تتفضل وحرمكم بالحضور إلى (القاهرة) .. »

- « إذن لماذا لا تحضر عالمك هذا و (نجلاء) إلى (أسوان) ؟ إنها فرصة للسياحة .. »

- « وددت هذا ، لكن وقت الرجل لن يسمح بهذا الترف .. »

ـ « ولكن ..... »

قلت له من جديد بوقاحة وتحدٍ :

ـ « (محمود) إن لم تأتِ سيكون لى تصرف آخر!»

ـ « هل هذا هو التهديد ؟ »

ـ « هو بعينه .. »

ـ « وماذا ستفعل أيها القوى ؟ »

ـ « لن أقول لك كى لا تتخذ احتياطاتك .. أنا بانتظار حضوركما ! »

ووضعت السماعة فى حزم :

لم أكن أمزح أو أدعى القوة .. لدىَ بالفعل ورقة قوية للضغط على (محمود) ، لكنى لم أكن لأستعملها أبدًا : (ماهر) ! إن (محمود) مستعد لعمل أى شىء كى لا يذهب الطبيب الأصلع للقاء (ماهر) ويخبره بعنوان (محمود) ورقم هاتفه .. (محمود) الذى هو قاتل أخيه .. وبرغم أن هذا حل يطير رأسى بدوره ..

★ ★ ★

لكننى ـ ولله الحمد ـ لم أضطر إلى هذا الاختبار ، الذى يضع فى الميزان مصداقية تهديداتى ..

سرعان ما ظهر (محمود) وحرمه ـ التى دنت من الولادة .. وطفلهما ..

ثلاثة وجوه أحرقتها شمس (أسوان) يبدو عليها بعض التذمّر مع القلق .. إن (محمود) لم يعد يحبّ العودة إلى (شبرا) ، خاصة بعد ما عرف أن شبح (صلاح) يتعقبه فى صورة (ماهر) هذا ..

وفى السادسة مساءً .. دخلت مكتبى مع (إيجور تاركوفسكى) ، وبعد دقائق جاء الطبيب المقيم ـ الذى أصابه الذعر لظهورى فى ساعة كهذه ـ ومعه توءمان وزوج .. (ناهد) .. (نجلاء) .. (محمود) ..

قمت بإجراء التعارف اللازم، ثم طلب منى (إيجور) أن أخفى (ناهد) بعيدًا عن أختها .. وقال لى :

ـ « للأسف لا أجد إمكانيات معاملنا ، كالدائرة التلفزيونية المغلقة وجهاز قياس الطاقة النفسية، لكنى سأحاول التصرف فى حدود الإمكانيات .. هل معك ساعة ؟ حسن .. سأعطيك ورقة بالمؤثرات المؤلمة التى ستحدثها لدى (ناهد) ـ أليس هذا اسمها ؟ وعليك أن تحدّد الوقت بدقة بالغة لكل مؤثر .. حسن؟»

ـ « موافق .. »

واصطحبت (ناهد) المتشككة إلى العنبر بعيدًا عن سمع ونظر أختها ..

ثم بدأت أُعرَض ذراعها لمؤثرات متباينة من وخز الإبر إلى الحرارة إلى اللمس إلى الاهتزاز ، وفى كل مرة كنت أدوّن الوقت ..

طال الفحص لمدة نصف ساعة .. ثم طلبت منها أن تعود معى ..

سألتنى فى ضيق وهى تُنزل كمَ ثوبها :

- « ماذا يريد ذلك المختل ؟ »

- « يريد معرفة الحقيقة .. »

- « ماذا يقول بالإنجليزية ؟ أنا أكره أن يتكلم الناس عنى بما لا أفهمه .. »

تنهدت فى صبر ، ولم أعلَق .. فقط تقدمتها إلى حجرتى ..

كان (إيجور) جالسًا إلى المكتب يدوّن آخر ملاحظاته ، ثم مدَ يده ليتناول ما كتبت أنا ..

قارن الأزمنة بطرف قلمه ، ثم هزَ رأسه :

- « تطابق شعورى تامَ .. لا شك فى هذا .. »

ثم قال وهو يناولنى ورقة أخرى :

- « الآن نفعل الشىء ذاته بالعكس .. »

ومن جديد اصطحبت (نجلاء) المكتئبة الصموت إلى العنبر ، وكررت ما فعلته مع أختها.. وكالعادة سألتنى :

- « هذا (الخواجة) .. هل هو مجنون قليلاً ؟ »

- « ربما .. لكنه عبقرى كذلك .. »

- « وهل يملك شفائى ؟ »

- « لا أدرى .. لكنه يملك أن يحاول .. »

وعدنا إلى حجرتى ، وفى هذه المرة ابتسم (إيجور) ومدّ يده يلوح بملاحظاته لى .. كانت ورقته بيضاء من غير سوء ..

إن (ناهد) لم تشعر بشىء على الإطلاق مما أصاب (نجلاء) ..

قلت له وأنا أجلس :

- « لا جديد فى هذا .. كلنا يعرف هذا .. فقط تأكدت أنت من أننى لا أُخرّف أو أتلاعب بك .. »

قال وهو يرمق الفتاتين فى انبهار :

- « إن هذا لكنز حقيقى .. ولعلها المرة الأولى التى توصف فيها ظاهرة مماثلة .. وإننى لفى حاجة

إلى إجراء رسم للمخ فى أثناء حدوث هذه الظواهر ..
أحتاج أيضًا إلى إجراء اختبار بالبطاقات لقياس
الإدراك فائق الحسَ لدى (نجلاء) هذه .. »

كانت (نجلاء) ملمة بالإنجليزية إلى حدَ ما ،
فاستطاعت التقاط كلمات مثل (حقيقى - المرة الأولى
- نجلاء) لكنها لم تقدر على وضع هذا كله فى
عبارات ذات معنى ..

أما (محمود) - وقد ازدادت عيناه حولاً - فقد
فهم أكثر المحادثة ، وبدا لى متوترًا بحقَ .....

قلت لـ (إيجور) :

- « يمكننى ترتيب رسم المخ غدًا مع وحدة
الأمراض العصبية .. هل تحتاج لشىء آخر ؟ »

- « نعم .. أريد مجالاً للأشعة تحت الحمراء .. »

ضغطت على أسنانى ، وأنا أتصورَ هذا السيرك
الذى أنا مطالب بإعداده غدًا .. يمكن اقتراض الجهاز
بشىء من العُسر من وحدة الأطفال المبتسرين ، فهم
لا يستغنون عنه فى حالات صفراء حديثى الولادة ..
لكن الأمر شبه مستحيل فى (مصر) حيث تصطدم

بمئـات العقبـات : عُهـدة .. لا يمكن نقلـه .. ماذا تريد عمله بالضبط ؟ لا بد من تصريح من العميـد .. لا بـد من موافقة الأمن .. إلخ .

لكننى قد عزمت على أن أفعل ما يريده (إيجور) ..

★ ★ ★

الفصل التاسع: ممل جدًا .. وعليك بالفرار إلى العاشر

فى العاشرة صباحًا انتهيت من أكثر الترتيبات ..
كان همى الأكبر هو الفضوليون .. فلا أريد أن ألصق بسمعتى ـ كطارد أشباح مخبول ـ تهمة إجراء تجارب غامضة لا تستند إلى أساس علمى ..
وما أكثر الفضوليين ! كأنما هو أمر خارق للطبيعة أن ترى فتاتين توءمين وطبيبًا أصلع وطبيبًا أمريكيًا كبير الأنف ، يحمل أحدهم جهازًا للأشعة تحت الحمراء وبطاقات ورسّام مخ .. وكل هذا متجه إلى مكتبى الذى أحكمنا غلقه ..
قام (إيجور) أولاً بإجلاس (نجلاء) أمامه .. ثم راح يخرج لها أوراقًا عشوائية من مجموعة أوراق لعب خاصة به .. كانت الأوراق تحمل رسومًا معينة سهلة كالنجمة والدائرة والصاعقة .. إلخ .. وكان على (نجلاء) أن تخمن الرسم الموجود على ورقة اللعب ، دون أن تراها ، وتقوله لأترجمه لـ (إيجور) ..

كانت هذه التجربة من تجارب (راين) الشهيرة ..
إن عدد بطاقات اللعب اثنتان وعشرون ، فلو استطاعت (نجلاء) أن تصل للتخمين الصحيح فى خمس منها لكان معنى هذا امتلاكها للإدراك الفائق للحواس E.S.P ..

والمشكلة فى هذه التجارب أن قابليتها للتكرار محدودة جدًا ؛ وهذا يؤدى إلى ارتفاع فى نسبة (الاحتمالية) التى يرمز لها الإحصائيون بـ (P) ..
إن التجارب التى ترتفع فيها نسبة (الاحتمالية) هى تجارب يمكن تفسير نتائجها بالصدفة المحضة .. تجارب لا يمكن تكرارها بنفس النتائج .. تجارب يتعذر النظر إليها بمنظار علمى لأن الحقيقة العلمية (يجب) أن تكون قابلة للتكرار ..

أفقت من خواطرى على صوت (إيجور) يقول بانتصار :

- « سبع ! »

سبع من اثنتين وعشرين محاولة .. لا بأس على الإطلاق ..

قلت له :

ـ « لكن الرقم سينخفض لو كررت المحاولة بالتأكيد .. »

ضحك طويلاً ، وقال :

ـ « إنها المحاولة الثالثة يا صديقى .. والنتائج هى ست .. تسع .. سبع .. برغم أنك تترجم لى ما تقوله الفتاة أجدك شارد الذهن تمامًا .. »

ووضع الأوراق فى علبة أنيقة ودسَها فى جيبه ، وأردف :

ـ « إن الفتاة تملك إدراكًا فائقًا للحس .. هذا ما استوثقنا منه ، وليس لقانون الصدفة دور هنا ..»

ـ « وماذا يجدينا هذا ؟ »

ـ « سترى حين أنتهى .. »

وأمرنى بأن أبدأ بإظلام الغرفة وإسدال الستائر ، وفى الظلام شبه الدامس جعلت (ناهد) ترقد على سرير الفحص الصغير وتغمض عينيها ، بينما (نجلاء) تجلس وراء مكتبى ..

ثم قام (إيجور) بتسليط كشاف الأشعة تحت الحمراء على (ناهد) ، بعد ما قام بربط أقطاب رسام المخ الكهربى إلى رأسها ..

سيرك ! هذا هو ما تحول إليه مكتبى .. لو أن عميد الكلية مرَ الآن وفكر فى أن يفتح الباب ...... !

ـ « الآن ابدأ المؤثرات المؤلمة .. »

وهكذا وقفت جوار سرير الفحص ، ورحت ـ لقد صار هذا مملاً ـ أغرس دبوسًا فى ساقى الفتاة وذراعيها ، ثم أعرضها لمؤثرات حرارية (هى دبوس قمت بتسخينه بقداحتى) ، ثم أضغط على عظامها ..

من خلف المكتب كنت أسمع صوت الـ (آى) والـ (أوه) الخاصَ بـ (نجلاء) ، واقشعرَ جسدى .. غريب جدًا .. أن تؤذى جسدًا فيتأوه جسد آخر من شدة الألم ..

كان (إيجور) يراقب رسام المخ الكهربى فى أثناء عمله ..

وفجأة صاح وهو يخرج آلة تصوير من حقيبته :

ـ « (رفعت) ! هل تراه ؟! »

★ ★ ★

إنه يأتى من العدم ليذوب فى العدم ..

هل تراه ؟ يعبر الآباد والأبعاد كى يتجسَد فى صورة شعاعٍ زمردى لا ينى عن التوهج .. براقًا وامضًا رقراقًا ينساب فى تؤدة .. فهل تراه ؟

تتوهج له أرواحنا قبل وجوهنا وسماتنا الخارجية..

لقد جاء من بعيد .. من قلب الكون حيث تنعس الأسرار .. من وراء السُدم فى المجرات القصية .. من كهوف لم يزرها بشر .. من جزر لم ترسم على خريطة .. من كواكب لم يرها مرصد .. من الجانب المظلم من القمر ..

ربما لمحه ـ فى فجر الكونِ .. غزال وليد ، فأجفل يلحق بخطا أمه عبر سهول (التايجا) ، أو ارتجف لرؤياه طفل على كتف أمه ، فارتجفت بدورها لأنها لا ترى ما يراه .. فلا بد أنها بسملت وحوقلت ..

ربما التمع لحظة فى عينى فتاة تمنيت أن تكون لك ، وعرفت أنك لها ..

ربما اقشعر له جسد ناسك يرمق السماء المظلمة وحيدًا ، وربما رآه (بيتهوفن) ولم يستطع وصفه ، فداعب مفاتيح البيانو كى تولد سيمفونيته التاسعة ..

ربما رآه من يحتضرون لحظة احتضارهم ولم يصفوه قط .. ربما أبصره أكثر من شاعر طار صوابه بعدها .. فلم يكتب حرفًا ..

ربما يبقى بعد ما نفنى ..

ربما هو موجود قبل أن نوجد ..

لكنــه هــامس غــريب متفــرَد ، لهـذا لـم نعـرف بوجوده قط ..

هل تراه يا (رفعت) ؟

نعم أراه .. وأعجز عن وصفه ..

★ ★ ★

كان الضباب الفوسفورى الأخضر الرقراق يتسلل فى خط طويل بطىء من رأس (نـاهد) إلـى فضـاء الغرفة .. يتلوى هنا وهناك .. يدور من حولى ومن حول رأس (إيجور) ثم ينتهى ليحيط رأس (نجلاء) بهالة كهالات القديسين فى رسوم (رافائيل) ..

وفى ذعر همست (نجلاء) :

ـ « بسم اللّه الرحمن الرحيم .. ما هذا ؟ »

برهبة ، وتؤدة همست لها :

ـ « إبقى كما أنتِ بلا حراك ..... »

ونظرت مستغيثًا إلى (إيجور) ، لكنه ـ لحسن الحظ ـ لم يبدُ مذعورًا ولا مذهولاً .. كان يعرف ما عليه أن يتوقعه ..

قال لى بصوت ثابت :



يتلوى هنا وهناك . . يدور من حولى ومن حول رأس (إيجور) ثم ينتهى
ليحيط رأس (نجلاء) بهالة كهالات القديسين فى رسوم (رافائيل) . .

ـ « هذا هو (السيَال الحيوى) .. لا تخف .. لقد رأيته كثيرًا فى تجارب تحضير الأرواح ، ولا يمكن رؤيته إلا فى الأشعة تحت الحمراء .. »

وواصلت (نجلاء) الأنين بلا انقطاع ، بينما جسدها كله قد صار مغلفًا بهذا الضباب الأخضر ..

(إيجور) يمسك بالكاميرا ويلتقط عدَة صور للأختين .. كليك ! كليك ! كليك ! مستحيل أن يسمح هذا الظلام بصورة جيدة ، ما لم يكن هذا الفيلم من نوع خاص يلتقط الأشعة تحت الحمراء ..

قال لى همسًا :

ـ « استمر فى إيذاء (ناهد) .. »

كانت (ناهد) مغمضة العينين كما أمرتها .. ومددت يدى بالدبوس كى أغرسه فى شحمة أذنها ـ برفق طبعًا ـ لكنها اختارت هذه اللحظة كى تفتح عينيها .. ولا بد أن ما رأته كان مرعبًا .. »

ـ « آآآآآآه ! أضيئوا الأنوااااار ! »

كانت صرختها مريعة كأنما تحاول انتزاع ذراعها الأيسر .. لكنى لا ألومها أبدًا.. لا بد أن منظرنا كأشباح سوداء وسط ضباب فوسفورى أخضر كان مرعبًا ..

وكانت الصرخة كافية كى يتلاشى الضباب بلا مقدمات ...

وبيد مرتجفة أضأت النور الكهربى، واتجه (إيجور) إلى النافذة ليفتح ستائرها .. ضوء الشمس الحبيب يتسرب كأنه مسحوق غسيل فعَال يزيل كل هذه الظلال النفسية ..

نظر حوله ثم قال :

ـ « هل الجميع بخير ؟ »

قلت له :

ـ « أظن هذا ، ما لم تكن واحدة منهما قد جُنت..»

ورحت أزيل الأقطاب عن رأس (ناهد) ، التى راحت ترتجف وأسنانها تصطك .. وراحت تردِّد :

ـ « عفاريت ! أنتم تتعاملون مع العفاريت ! لقد كانوا هنا معنا .. أنا واثقة من ذلك .. »

ـ « ماذا تقول ؟ »

كذا سألنى (إيجور) وهو يجمع حاجياته فى حقيبته ، فترجمت له ما قالت الفتاة .. قال بابتسامة عليمة بالأمور :

ـ « لا ألومها كثيرًا .. لكن لا عفاريت فى

الموضوع .. قل لها : إن هذه صورة من الحياة اليومية فى معامل (الباراسيكولوجى) .. »

- « لن أقول ، فلن تفهم ..... »

هنا دوّت طرقات على الباب .. »

- « د. (رفعت) ! هل أنت بخير ؟ »

لقد سمعوا صراخ الفتاة .. توتر (إيجور) لكننى أشرت بيدى كى يطمئن، واتجهت إلى الباب وفتحته ..

كان هناك ثلاثة أطباء وممرضتان وعامل ، قد حشروا رءوسهم فى فتحة الباب محاولين فهم ما يجرى هنا ..

قلت لهم بابتسامة مشجعة :

- « لا شىء .. إنه (السيَال الحيوى) قد أثار رعب الفتاة .. إن هذه الأشياء تحدث ! »

هزّوا رءوسهم فى فهم ذكى وانصرفوا ..

هذا هو الحلّ الوحيد .. دعهم يعتقدوا أننى مجنون وكفى .. أما إعطاء تفسيرات كاذبة فلنٍ يزيد الأمور إلا تعقيدًا .. وعلى كل حال أعتقد أن كلاً منهم يخشى أن يسأل الآخرين عن معنى (السيَال الحيوى) هذا ، حتى لا يبدو جاهلاً بأمر بديهى ..

وعدت إلى (إيجور) أسأله :

- « الآن أريد تفسيرًا لكل ما حدث في هذه الغرفة .. »

★ ★ ★

الفصل العاشر: مهمّ نوعًا .. لكنه لن يضيف شيئًا إلى الفصل التالى

قال (إيجور تاركوفسكى) :

- «إن الفتاة أنانية.. وهذا هو مفتاح الموضوع..»

كنا جالسين فى (كافتريا) صغيرة على طريق المطار ، عالمين أنه يجب أن يكون فى صالة المسافرين خلال ساعة ..

قلت له وأنا أقطع شريحة اللحم :

- « لقد كان يومك مرهقًا .. تجربة الصباح ، ثم طبع الصور ودراسة رسم المخ ، ثم استنتاج الموقف من كل هذا .. »

راح يلوك طعامه مفكرًا ثم قال :

- « هذا عملى وأنا أحبَه .. أنت رأيت الصور طبعًا .. فما رأيك ؟ »

وأشار إلى عدة صور ملقاة على المنضدة بجوار طبقه .. كانت - فى أكثرها - تظهر بقعًا لونية لها السمت الخارجى لـ (ناهد) .. هذا هو جسدها كما

تراه الأشعة تحت الحمراء ، وكان (السيَال الحيوى) يخرج منها كدخان لفافة تبغ ويتلوَى فى الهواء ..

قلت له :

ـ « الأمر واضح .. كل شىء يبدأ من الفصَ الجبهى للفتاة .. إن رسم المخَ ـ كما تؤكَد أنت ـ يظهر نشاطًا كهربيًا غير عادىً هناك .. »

راح ينظر للجالسين حولنا : الفتى والفتاة الجالسين يتهامسان على منضدة ذاتية .. العجوز الأرستقراطية الصموت التى تحشو فمها بالمكرونة .. الرجل العصبى الذى يبدو كلص حقائب ، ولا يكف عن التلفت حوله ..

وقال :

ـ « كل هؤلاء يبعث منهم (سيَال حيوى) فى كل لحظة من حياتهم ، ويؤثر بشكل ما على من يحيطون بهم.. لهذا تلقى من يمنحك البهجة أو النشوة ، وتلقى من يمنحك الكآبة أو القلق .. لهذا تعرف الشخص حتى لو تنكر بشكل متقن .. لهذا يمكنك أن تحسد الآخرين .. إن (السيَال الحيوى) المنبعث منك يؤثر بشكل ضارَ فى (السيَال) الخاص بمن تحسدهم ،

ولهذا يمرضون ويتشاجرون ويتصرفون بحماقة .. »

- « هذا كلام شعرى لا يمكن إثباته .. »

هزَ رأسه فى أسى ، وغمغم :

- « هذا حق .. كل تجارب الباراسيكولوجى غير قابلة للتكرار للأسف .. وقد اعتدنا أن نساوى الـ (P) أكثر من خمسة بالمائة .. هذا قدرنا(*) ..

لكن هناك ما يعرَفه الإحصائيون بـ (الخطأ من النوع الثانى) ، حين تكون النتائج مهمة حقًا ، لكن الإحصاء يقول إنه لا أهمية لها .. ولعمرى هذه هى مشكلة الـ (P) الأزلية ..

انتهت شريحة اللحم للأسف ولم أشبع بعد ، لذا رحت ألتهم السلطة وأصغى لما يقول (إيجور) :

- « إن الفتاتين تملكان ذات (السيَال الحيوى) ، لهذا كانتا على اتصال شعورى دائم كأنما ما يربط بينهما سلك من أسلاك الهاتف .. »

رفعت يدى معترضًا لأذكر - كما يقولون فى الاجتماعات - نقطة نظام :

(*) سبق أن شرحنا معنى الـ (P) فى صفحة (١٠١) .

ـ « لحظـة .. لقد ظهرت هذه الظاهرة فى وقت متأخر نسبيًا .. ربما بعد انتهاء فترة المراهقة .. »

ـ « منطقى .. أن تباعد الفتاتين جسديًا ـ بعد ما تزوجت إحداهما ـ جعل الرابطة المعنوية أقوى .. إن الهاتف لا أهمية له حين تكون زوجتك معك فى غرفة واحدة ، لكن حين تسافر أنت يغدو الهاتف أهم جهاز فى الكون .. »

كدت أخبره أننى غير متزوج ، ثم تجاهلت هذا حتى لا يسألنى عن السبب وكل هذا الهراء .. وسألته أو ـ بالأحرى ـ عارضته :

ـ « المفترض أن الظواهر الباراسيكولوجية تنتعش فى سن مراهقة الفتيات ، وإلا لا تنتعش أبدًا .. »

ـ « نحن لسنا بصدد ظاهرة باراسيكولوجية معروفة كالتحريك عن بعد أو التخاطر أو الوساطة .. نحن نتحدث عن اتصال شعورى ازداد قوة فى فترة ما .. »

عدت أسأله وقد انتهت السلَطَة للأسف :

ـ « لكن هذا الاتصال انقطع فى فترة ما .. »

ـ « بعد حادث الاختطاف .. هذا صحيح .. »

ورشف بعض الماء ، وأردف :

- « لقد كان العذاب شديدًا ، والخوف أشدّ .. لهذا قاومت (نجلاء) كثيرًا كى تلغى ارتباطها الشديد مع أختها .. إنها لا تميل إليها بحال ، لكن عقلها الباطن - عقل شهيدة حقيقية - لم يتحمل فكرة أن تعانى (ناهد) الآلام ذاتها .. هكذا ببساطة قام بقطع حبل الاتصال بين الأختين، ولم تعد (ناهد) تستقبل شيئًا..»

- « هكذا ببساطة؟ لم أحسب (نجلاء) بهذا النُبل..»

- « هى بهذا النبل لكنها لا تعرف .. وهذا هو سبب عذابها .. »

ثم مدّ يده بالسكين ، ووضع رغيفًا فى طبقه ، وبنصل السكين قسمه إلى نصفين :

- « هكذا كانت الفتاتان كيانًا واحدًا سرعان ما انقسم فى رحم الأم ، وظفرت واحدة منهما بقسط هائل من النفعية والأنانية ، بينما لم تظفر الأخرى بشىء منهما .. نفس الشىء حدث بالنسبة للجمال وفرص الحياة ، وإن كانت (ناهد) غير جميلة على الإطلاق بمقاييس أمريكى مثلى ..

« أنت تعرف ما يحدث للتوائم السيامية كثيرًا ..

إذ يتحول واحد منهما إلى وحش أنانى يمتص كل الغذاء ، ويمتصَ وجود أخيه نفسه ، ليتحول الأخير إلى ورم أو ثألولة فى جسد الأول ..

« كانت (ناهد) توءمًا من هذا النوع الأنانى ، لكنها امتصت (نجلاء) نفسيًا ، وببطء - حين انقطع الإرسال من جهة (نجلاء) - صارت (ناهد) قادرة على إرسال كل آلامها وأحزانها إلى أختها البائسة .. بل إنها ترسل مخاوفها كذلك لها ! »

التهمت أحد نصفى الرغيف ، وسألته :

- « ماذا تعنى ؟ »

- « شبح الفتى الذى يطارد (نجلاء) .. من المنطقى أكثر أنه يطارد (ناهد) التى لا بد أن تشعر بعقدة ذنب تجاهه .. أعتقد أن هذا الشبح يطارد (ناهد) أساسًا لكنها ترسله إلى أختها ! »

- « (ناهد) تفعل كل هذا ؟ »

- « لا شعوريًا تفعله .. عقلها الباطن يفعله .. »

وأشعل لفافة تبغ غريبة المنظر، فسألته فى حيرة :

- « حسبت من رسالتك السابقة أنك لا تدخن .. »

- « أحيانًا أفعل.. أحيانًا بعد وجبة دسمة كهذه ! »

نظرت إلى الأطباق الفارغة ، وتساءلت عن فارق لفظة (دسم) بين المصرى والأمريكى .. لشد ما تتباين الثقافات ..

نفث دخان اللفافة فى الهواء ، وقال :

ـ « ثمة نقطة مهمة لم تلحظها أنت ، ولاحظتها أنا فى خطابك .. لقد أجريت جراحة ـ لقرحة معدية ـ لـ (ناهد) ، وبرغم هذا لم تنم (نجلاء) عندما أخذت (ناهد) جرعة التخدير .. وبعد هذا بأشهر نامت (نجلاء) حين حقنت أنت (ناهد) بالـ (بارالدهايد) .. فما سرّ هذا التناقض ؟ »

اتسعت عيناى .. حقًّا لم أتنبه لهذا من قبل ..

قال مبتسمًا :

ـ « فى الماضى كان البثّ الشعورى مزدوجًا بين الأختين ، وكان بوسع (نجلاء) أن تستجيب أو لا تستجيب ، لأن لديها مشاعرها الخاصة .. أما فى الحاضر فقد صارت (نجلاء) تحت سيطرة (ناهد) بالكامل .. »

هززت رأسى موافقًا ، وبدأت أفتك بنصف الرغيف الأخير ، فقال باسمًا :

- « لم أحسبك بهذه الشهية الطيبة برغم نحولك!»
- « إننى لا أعترف بطعام المطاعم .. أعتبره نوعًا من فواتح الشهية لا أكثر .. ولا أذكر قط أننى شبعت فى مطعم .. »
وبفم ممتلئ بالخبز سألته :
- « والحلَ ؟ »
قال فى جدية وهو يرمق الصور :
- « إن (ناهد) استحوذت تمامًا بسيَالها الحيوى على أختها ، ولا مفرَ لنا سوى استئصال مصدر هذا السيَال .. إن بوسعنا الآن أن نحدَد ذلك المصدر : المنطقة (ب) من الفصَ الجبهى لـ (ناهد) .. وما أتحدث عنه هنا هو الجراحة النفسية ، كالتى أجريت لى فى (الولايات) .. إن دكتور (إيرهارت) فى (منيسوتا) قد صار حجَة فى هذه الجراحات ، ويعالج الهستيريا والوسواس القهرى بمبضعه ببراعة تامة .. »
ابتلعت ريقى ، وعدت أسأله :
- « والنفقات ؟ »
- « هل يمكن تدبير علاجها على نفقة الحكومة هنا ؟ »

ابتسمت فى مرارة :

- « يمكننى أن أتصور نفسى وأنا أكلم المسئولين هنا عن ضرورة استئصال (السيّال الحيوى) لـ (ناهد) على نفقة الدولة ! سيكون هذا مشهدًا مسليًا حقًا .. »

أطفأ لفافة تبغه مفكرًا ، ثم قال :

- « يمكن إقناع جامعة (دوك) بتحمل النفقات فى سبيل البحث العلمى .. إن حالة الأختين مغرية بلا شك ، وتهمّ الكثيرين .. لكنى لا أضمن لك هذا .. يمكننى أن أؤكد أننى سأحاول جهدى .. »

- « هذا ما أريده .. »

نظر لساعته ، وأعلن أن الوقت قد حان للذهاب للمطار ، فناديت النادل كى أدفع الحساب .. قال (إيجور) وهو يخرج حافظته :

- « دعنى أتولّ هذا .. ما دمت لم تشبع ! »

أمسكت يده فى صرامة :

- « أنا من محافظة تدعى (الشرقية) .. ونحن لا نمرح فى أمور كهذه .. ثم إنك لست أمريكيًا بالكامل ولا إنجليزيًا .. أنت بولندى أصيل ! »

واوصلته للمطار عاجزًا عن شكره بما يكفى ..
لن يعرف أبدًا كم أفادنى .....

* * *

الفصل الحادى عشر : شديد الأهمية لهذا أنصحك بقراءة ما سبق لتفهمه ..

بعد ثلاثة أيام :

جرس الهاتف يدقَ بلا انقطاع فى دارى ، ذلك الرنين الطويل الذى يشى بمكالمة غير محلية .. إن المكالمات المحلية تجلب الهموم ، لكن غير المحلية تحمل المصائب دائمًا ..

وهرعت إلى السماعة وقلبى يتواثب .. فسمعت من يتكلم بالإنجليزية .. ليس هذا من (كفر بدر) طبعًا ما لم يكن اللورد (كيلرن) قد تولَى العُمْدِيَة هناك .. وأخيرًا جاء صوت (إيجور) :

ـ « د. (رفعت) .. إنهم موافقون هاهنا ! »

ـ « ماذا ؟ وافقوا دون مشاكل ؟ »

ـ « كانت هناك مشاكل لكنى ذللتها ، والدكتور (إيرهارت) مستعد لإجراء الجراحة مجانًا فى مستشفاه بـ (منيسوتا) .. »

ـ « حقًا لا أعرف ما أقول لك .. »

ـ « أنت تعرف كيف تتصل بى .. عندما تستعد

الفتاتان سأرسل لك بالتعليمات ، ولسوف تجد تذاكر السفر فى مكتب القائم بالأعمال .. »

- « شكرًا يا (إيجور) .. شكرًا ! »

ووضعت سماعة الهاتف ، وارتديت ثيابى على عجل ..

★ ★ ★

الأسرة كلها جالسة فى قاعة الجلوس ، التى جعلها الازدحام كحافلة فى ساعة الذروة .. أمامى تجلس (نجلاء) منزوية ترمق الأرض بلا انقطاع ، وفى أريكة واحدة يجلس الأب والأم لا يفهمان ما يحدث ، وجوارهما (محمد شاهين) ..

أما (محمود) و (ناهد) - وقد جلس ابنهما على ركبتى أبيه - فيجلسان على مقعدين متجاورين ، وبطن (ناهد) المنتفخ يشى بأننا اقتربنا جدًا ..

نظرات الارتياب فى شخصى المتواضع لا تتوقف ..

(كمال) يقف جوار النافذة مستندًا بكوعه إلى إطارها ، ويحاول الفرار بعينيه منها كى لا يرانا ولا نراه ..

كان قدوم (كمال) هو أفضل ما استطعت عمله ،

وبوساطة قوية من (مختار) المحامى .. أنا لا أقنع أحدًا ، لكن (مختار) قوة كاسحة عاتية تجرف أمامها كل شئ ، ويستحيل معها أن تعلن رأيك الخاصَ ..

كانت جلسة أمس مع (مختار) هى التى نجحت فى غسل مخ الفتى ، ولم يكن شريرًا ممعنًا فى شره .. كان يحب (نجلاء) حقًا ، وتكفيه لمسة إصبع كى يعود لها طالبًا الصفح ، وردَها إليه ..

لقد أسعد هذا (نجلاء) ، لكنها أزمعت أن تلعب لعبة الأنثى العتيدة ، وتتظاهر بأن الأمر غير ذى أهمية لها .. إن الحياة ممكنة من دون (كمال) كما هى ممكنة به..

كان هذا الموقف حين بدأت جلستنا هذه فى بيت الأسرة ..

★ ★ ★

قلت لهم منتقيًا كلماتى :

ـ « كما ترون قد فرغ الدكتور (تاركوفسكى) من إجراء اختباراته ، وهو يرى أن وضعنا ليس مستحيلاً .. إن (نجلاء) و (ناهد) قابلتان للشفاء من هذا الارتباط السخيف .. »

هنا قال (محمود) متململا :

ـ « لكن هذا الموضوع انتهى منذ زمن طويل .. »

ـ « انتهى بالنسبة لزوجتك ، لكنه قائم وبشكل شنيع بالنسبة لـ (نجلاء) ، وما لم نفعل شيئا ستظل تلعب دور مركز الآلام لأختها ، وهذا ليس عدلاً على الإطلاق .. »

ـ « والحلّ ؟ »

كان الأمر عسيرًا بحق ، ولقد أصررت على إقحام (كمال) لأجد فى جانبه ما يعضدنى .. إن ما أقوله سيفجّر فى وجهى غضبة عاتية ..

قلت فى تؤدة :

ـ « هناك جراحة .. وهى ليست بالضبط جراحة هينة ، لكن نسبةَ نجاحها لا بأس بها ، وسيكون على الجراح أن يستأصل من مخ (ناهد) ذلك الجزء المسئول عن تدفَق السيّال الحيوى إلى أختها .. بعبارة أخرى سنقوم بقطع سلك الهاتف بين الأختين..

ـ « أعرف أن هذا عسير ، لكن يطمئننا أن الجراحة ستجرى فى مركز مختصَ بهذه الأمور فى (منيسوتا) .. وستتحمل جامعة (دوك) كافة نفقات

الجراحة ، فلن يكون علينا سوى الذهاب إلى (أمريكا) برأس (ناهد) ! »

ـ « ونعود من دونه ! »

قالها (محمود) فى ضيق ، وهو ما كنت أتوقعه ..

قلت له فى كياسة :

ـ « لن يعود أحد دون رأس.. إن الجراحة النفسية علاج فعَال معترف به ، وما من حلَ آخر .. »

ـ « نحن ـ ببساطة ـ نرفض هذا الحل .. »

وبسماجة أضافت (ناهد) :

ـ « ثم لا تنس أننى حامل فى الأشهر الأخيرة .. بل الأيام الأخيرة .. »

قلت وأنا أنظر إلى (نجلاء) الصموت :

ـ « ونحن سننتظر حتى تضعى حملك .. لن يجرى أحد جراحة فى المخ لحامل متمَ .. »

اتسعت عيناها فى توحش ، وقالت :

ـ « سأكون واضحة .. أنت تريد منى أن أسلم رأسى لعلمائك المخبولين هؤلاء كى يقطعوا جزءًا من مخى ، وكل هذا على أساس نظرية ذلك الأمريكى غريب الأطوار .. والمطلوب علاجى من مرض لا وجود له أصلاً .. »

ـ « لكنه موجود بالفعل لدى (نجلاء) .. هذه هى المشكلة .. لو كنت أنتِ من تعانين لبحثت بكل قواك عن مخرج .. أما والنار فى بيت الجيران فما دخلك أنت بالموضوع ؟ »

قال (محمود) فى كياسة ، وبلهجة من يهدئ الأمور :

ـ « دكتور (رفعت) .. أنت أسديت لنا خدمات كثيرة ، وكنا صديقين لفترة لا بأس بها .. لكنى أراك تقول ما لا يصدقه عقل .. ومن جديد نحن نرفض هذا الاقتراح السخيف .. »

هنا قاطعته (ناهد) فى عصبية ، وبتوحش متزايد قالت لى :

ـ ليس هذا كل شىء .. يجب أن تكفَ عن الإيقاع بينى وبين أختى .. كفَ عن إشعارها بأننى أملك الحلَ ولا أريد تقديمه لها .. كُفَ عن وضعى فى صورة الأنانية .. »

كانت قد تحولت الآن إلى نمر شرس مخيف بحقَ ، فلا يدنو منه إلا مجنون .. وكنت أنا هذا المجنون ..

قلت فى برود :

ـ « أنا لا أشعرها بشىء .. أنت بالفعل تملكين الحلَ .. »

نفخت غيظًا واحمرَ وجهها .. كانت من النسوة المتبرجات اللواتى يزلن شعر حواجبهن ليرسمن بدلاً منها خطًا بالقلم الأسود ، ولم يكن تأثير هذا ــ مع غضبها ـ محببًا للنفس .. كان تأثيرًا شبه شيطانى .. قالت :

ـ « حسن .. أنا أرفض حلك هذا وأريد منك أن تخرس ! »

كان وقع الكلمة عنيفًا ، وشعرت بصفعة معنوية على خدى .. فأنا لم أعتد الإهانة قط .. وسمعت (محمد شاهين) يطقطق بلسانه معترضًا ..

نظرت إلى (نجلاء) ، وبصوت مشروخ قليلاً سألتها :

ـ « (نجلاء) .. لماذا تلزمين الصمت ؟ »

لم ترفع عينيها نحوى ، وهمستْ :

ـ « وماذا أقول ؟ »

ـ « قولى رأيك ! »

وقال (محمد شاهين) فى لهفة :

ـ « (نجلاء) .. هل أنت راضية ؟ »
بابتسامة جانبية مريرة ، قالت :
ـ « أنا أجد الاقتراح غير منطقى ، عسيرًا أن أبتلعه .. ولو كنت مكان (ناهد) لما قبلت ! »
سرت تنهيدة ارتياح فى جو الحجرة ، والتمعت ضحكة وحشية كريهة على وجه (ناهد) ، ثم قال (محمود) بتؤدة :
ـ « لقد سمعت ما قيل يا د. (رفعت) .. أعتقد أنه ما من أسئلة أخرى .. »
ثم نهض فى إيماءة ظاهرها اللطف وباطنها الإهانة ، وقال :
ـ « الآن نرجو عذرك لأن هناك أمورًا عائلية خاصة ستتم مناقشتها ، وهى ليست مما يمكن قوله أمام الغرباء ! »
كان هذا هو الطرد ..
المعنى واضح إذن .. نحن جميعًا متفقون .. فمالك أنت بنا يا أحمق ؟ أسرة سعيدة متماسكة .. دون (رفعت إسماعيل) و (إيجور) و (راين) وكل علماء (دوك) المتطفلين ..

ودون كلمة أخرى غادرت المكان .....

* * *

طبعًا لا داعى لذكر تفاصيل المرض الذى ألـمَ بـى ، وألزمنى الفراش لمدة أسبوع بعدها ..

لقد حار زملائى فيه ، واعتقدوا أنها حمى تيفوديـة أو .. أو .. لكنى كنت أعرف التشخيص الصحيح .. إن كبريائى وقد جُرح ينزف سمومًا فى دمى ..

طبعًا لن أحكى هذه التفاصيل السخيفة ، فهى شـىء معروف ..

فقـط أقـول إننـى قلـت لنفسـى : هــذا هو جـزاؤك الحقَ .. لماذا تتدخل فيما لا يعنيك وتسدى العون لمن لم يطلبه ؟ أتطلب مزيدًا من الحكمة والعلم؟ ما جـدوى الحكمة والعلم اللذين يسببان طردك بهذه الطريقة ؟

أسبوع مرَ علىَ فى الشقاء .. لكنى فى نهايته كنت قد غدوت شخصًا آخر .. شخصًا لا يبالى بالآخرين .. والمؤسف أننى كنت بهذا سعيدًا راضيًا ..

* * *

وبعــد أســبوعين من تلك الجلســة الداميــة قُتلت (ناهد) ..

كـان هـذا فـى السـابعة مسـاءً ، وقـد انتـهـت إجـازة زوجـهـا ، لذا كانت تعـدّ كل شـىء للسـفر فى الغدَ إلى (أسوان) .

أخبرنى د. (محمد شاهين) وهو يبكى أن (محمود) و (ناهد) وطفلهما نزلوا إلى الشارع للتسوّق ..

وكان الشـارع التجـارى مزدحمًـا يغصّ بالنـاس ، و (ناهد) تمشى وراء زوجها فى حذر كى لا يصطدم أحد ببطنها الكبير ..

هنا برز رجل من وسط الزحام ، وقبل أن يفهم أحد ما حدث غرس سكينًا فى عنقها ، وهو يصرخ :

ـ « من أجل (صلاح) ! »

والتفت الزوج إلى الوراء ليرى المشهد الدامى ، وفى اللحظـة ذاتهـا كان المعتـدى ـ ملوحًا بسكينه ـ يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا .. أجفل بعض المـارة وابتعدوا .. لكـن اثنين مـن أولاد البلـد (الفتـوّات) استطاعا أن يجندلا المعتدى أرضًـا ويصرعـاه ، وكـان هناك ملازم شرطة شاب فى ثياب مدنية ، وثب علـى المعتـدى وانـتزع السكين مـن يـده ، وألصق بجبهتـه طبنجته الحكومية ..



والتفت الزوج إلى الوراء ليرى المشهد الدامى ، وفى اللحظة ذاتها كان المعتدى ـ ملوحًا بسكينه ـ يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا . .

لقد تمَ القبض على الفاعل .. الذى هو (ماهر) طبعًا ـ لكن بعد ما حدث الضرر المطلوب ..

ها هى ذى (ناهد) ترقد على الرصيف ، فى بركة من دمها ، مفتوحة العينين شاخصة للسماء ، والزوج يحاول ذاهلاً أن يعرف موضع الخلل الذى انتزع الحياة من هذا الجسد ..

ـ « إسعاف ! إسعاف ! »

طلبها ، وطلبها بعض الواقفين ، لكن ـ بالنسبة لأكثرهم ـ كان الأمر واضحًا تمامًا .. لقد ماتت المرأة على الفور .....

لقد انتظر (ماهر) اللحظة المناسبة طويلاً جدًا جدًا ، وكان ينوى قتل الزوج لكنه عدل عن ذلك ، فـ (ناهد) ضحية مفضلة لأنها تعذب الزوج للأبد ، ثم إنها الحبَ القاسى الذى تخلَى عن أخيه ..

وها هو ذا يفعلها فى أبعد اللحظات عن توقع شىء كهذا ..

★ ★ ★

أخبرنى (محمد شاهين) بهذا هاتفيًا ، وهو لا يكفَ عن البكاء ؛ فسألته :

ـ « والجنين ؟ »

ـ « بالطبع مات بدوره .. ماذا تريد ؟ »

هنا تذكرت .. ثمة مأساة أخرى أكثر أهمية :

ـ « وماذا عن (نجلاء) ؟! »

ـ « لم تعرف بعد .. إنها مع زوجها فى (الإسكندرية) ولا نعرف كيف نتصل بها ! »

ـ « يا حمقى ! »

كانت المأساة قد وقعت فى السابعة مساء ، وأخبرنى (محمد شاهين) بها فى الثالثة بعد منتصف الليل ..

لقد سافرت (نجلاء) مع زوجها إلى (الإسكندرية) على سبيل شهر عسل ثانٍ ، وكى تهدئ أعصابها بعد كل ما كان من توترات .. ولكن يا له من وقت ! يا له من وقت !

سألته فى حنق :

ـ « وهل تعرفون أين تقيم ؟ »

ـ « عند أخت (كمال) فى (العصافرة) .. لماذا تسأل ؟ »

ـ « وتعرف عنوانها ؟ »

ـ « ربما أجده عند أم (كمال) .. ولكن لماذا تسأل ؟ »

ـ « لأنك أحمق ! يجب أن نسرع حالاً إلى (الإسكندرية) ، فلو صح توقعى ، أعتقد أن الأستاذ (عبد الجواد خليفة) قد فقد ابنتين لا واحدة ! »

قال لى ذلك الجانب الطفولى من عقلى الباطن ..

ـ « ألم تقسم على عدم التدخل فى شئون أسرة المتاعب هذه ؟ »

فيقول له الجانب الناضج من عقلى :

ـ « ثمة أشياء أهم من الكبرياء ، وأمور لا يمكن التردّد فيها أساسًا .. »

وهكذا ـ أنتم تعرفوننى ـ رحت أشق الطريق الزراعى بسيارتى ، جوار (محمد شاهين) الذى أنساه الذعر حزنه ، وراح يردّد الأدعية كى لا تنقلب السيارة ..

كان الظلام دامسًا وثمة (شبورة) لا بأس بها ، فى هذه الساعات الأولى من اليوم .. وشعرت كأننى أشق طريقى وسط سحابة ، أو وسط غابة من القطن الأبيض ..

لم أخف لأننى كنت منهمكًا فى توجيه اللوم والسبَاب لمرافقى :

ـ « يا حمقى ! يا أغبى الناس طرًا ! لقد كان يوم عرفتكم يومًا لم تشرق له شمس .. والأسوأ منه يوم جعلتك تدخل دارى فى البداية ! »

فكان يرتجف وينصحنى بأن أهدأ كى لا نموت ..

★ ★ ★

وبعد مائة دقيقة لا أكثر كنت أشق شوارع المدينة النائمة ، مسترشدًا بوصفه .

أخيرًا وصلنا للبناية المتواضعة فى الشارع الذى أغرقه الضباب .. ثمة كلب ينبح فى مكان ما ، وكلب يردَ عليه .. البرد .. الصمت ..

قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أطفئ المحرّك :

ـ « لا أرى آثار موت .. لكن اصعد لترى .. »

ـ « بل تجىء معى .. »

وترجلنا ، ورحنا نرمق الكائن المظلم المغلق على أسراره ..

ـ « هذا هو العنوان لا شك فى هذا .. »

وفى بطء صعدنا الدرجات المظلمة .. كل شىء يذكرنى ببيت (شبرا) كأن (نجلاء) ـ حتى حين

تتنـزه ـ لا تختـار سـوى ما يشـبه بينتها الأصلية ..

وعند الطابقِ الثانى والأخير قرع (محمد شاهين) الجرس طويلاً ..

ونظرت لساعتى : السادسـة صباحًا تقريبًا ، ولما تشرق الشمس بعد .. وزوّار الفجر يلهثون بانتظار فتح الباب ..

صـوت المـزلاج .. سـؤال فـظ عـن الطـارق .. الشراعة تنفتح ..

ضوء السلم يضاء ليغمرنا بالنور ..

رجل فظّ الملامح خشـنها بطاقيـة النـوم يرمقنـا فـى ذهول غاضب ..

ومن خلف ظهره لمحت وجـه (كمـال) المتسـائل المندهش ..

وبعد دقيقة برز فـى مجـال الرؤيـة مـا كنـت أبحـث عنه ..

(نجلاء) ..

كـانت سـليمة معافـاة لـو تجاوزنـا عـن المنديـل المربوط حول عنقها ..

★ ★ ★

الخاتمـة

عزيزى (إيجور) :

....

.... وكما تـرى مـن رسـالتى الطويلـة ، كـانت هـذه خـاتمـة الأحـداث الداميـة والمؤسـفة التـى عصفت بهذه الأسرة ..

أمـا تفسيرى لمـا حدث ، فهـو أن مـوت (نـاهد) قطع الرابطة ما بين التوءميـن ، وتحـررت (نجـلاء) أخيرًا ..

لقد كان جلّ ما شعرت به هو ألم حادّ فى العنق ، وبحّـة فى صـوتها ، حتى إنهـا اضـطرت إلـى ربـط عنقها .. لكنها ظلت حيّة ..

هـذه هى الإجـابة عن سـؤالنا عمـا كـان سيصيب إحدى الأختين لو ماتت الأخرى ..

لقد تم استئصال الجزء النشط من عقل (نـاهد) بطريقة جذرية للغاية ، وإن كنت لا أشعر بأسف كثـير لهذا .. لقد استحقت (نجلاء) حريتها ، وإننى لواجـد عدالة شعرية لا بأس فيما حدث ..

هلكت الفتاة السيئة، وعاشت الطيبة سليمة معافاة ..
وإننى لأرى بعين الخيال ..
أرى (نجلاء) و (كمال) يظفران بسعادة استحقاها ولم يظفرا بها قط ..
أرى طفلتهما الجميلة الطبيعية تمرح بينهما ..
أرى ابن (ناهد) يترعرع فى دار خالته طيبة القلب ، دون أن يشعر لحظة بالحرمان من أمه ..
أرى (محمود) وقد عاد وحده إلى (أسوان) يمارس حياته بلا مخاوف .. ولسوف ينسى .. حتمًا سينسى ..
أرى (نجلاء) - بعد عمر طويل وشيب كثير - تلفظ أنفاسها الأخيرة ، لتلحق بـ (ناهد) فى العالم الآخر ، وأعرف مطمئنًا أنه - للمرة الأولى - لن تتعذب واحدة منهما بدلاً من الأخرى ، لأنه عالم عادل تسوده الرحمة الإلهية ..

★ ★ ★

انتهت قصة التوءمين ..
وحقَ لى أن أظفر ببعض الراحة ..

لكننى ـ فى ملاحقتى للغرائب ـ شبيه بالنشَال الذى لا يتوب أبدًا ، مهما أمسكت به الشرطة ، ومهما تلقى على قفاه من صفعات فى الحافلات ..

لهذا كانت هناك حلقة رعب ..

وهذه الحلقة .. كانت تدور حول موضوع محبب : الرعب خلف باب مُغلق ..

كانت هناك قصص عديدة ، لكن أفضلها كان .....

ولكن هذه حلقة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

● صدر من هذه السلسلة ●

رجل المستحيل

صدر من هذه السلسلة :

1 - الاختفاء الغامض .
2 - سباق الموت .
3 - قناع الخطر .
4 - صائد الجواسيس .
5 - الجليد الدامى .
6 - قتال الذئاب .
7 - بريق الماس .
8 - غريم الشيطان .
9 - أنياب الثعبان .
10 - المال الملعون .
11 - المؤامرة الخفية .
12 - حلفاء الشر .
13 - أرض الأهوال .
14 - عملية مونت كارلو .
15 - إمبراطورية السم .
16 - الخدعة الأخيرة .
17 - أنتقام العقرب .
18 - قاهر العمالقة جـ ١ .
19 - أبواب الجحيم جـ ٢ .
20 - ثعلب الثلوج .
21 - مضيق النيران .
22 - أصابع الدمار .
23 - فارس اللؤلؤ .
24 - الضباب القاتل .
25 - الخنجر الفضى .
26 - أخر الجبابرة .
27 - الجوهرة السوداء .
28 - قلب العاصفة .
29 - الصراع الشيطانى .
30 - الرمال المحرقة .
31 - الخطوة الأولى .
32 - خيط اللهب .
33 - القوة (أ) .
34 - مارد الغضب .
35 - قراصنة الجو .
36 - ذئب الأحراش .
37 - مخلب الشيطان .
38 - لعبة المحترفين .
39 - أعماق الخطر .
40 - مهنتى القتل .
41 - الانتحاريون .
42 - الهدف القاتل .
43 - المخاطر .
44 - العين الثالثة .
45 - القضبان الجليدية .
46 - لهيب الثلج .
47 - الرصاصة الذهبية .
48 - شيطان المافيا .
49 - الضربة القاضية .
50 - مهمة خاصة .
51 - سم الكوبرا .
52 - جبال الموت .
53 - ذئاب ودماء .
54 - رحلة الهلاك .
55 - أفعى برشلونة .
56 - الفهد الأبيض .
57 - عملية الأدغال .
58 - أعدام بطل .
59 - أنتقام شبح .
60 - دونا كارولينا .
61 - ملائكة الجحيم .
62 - ملك العصابات .
63 - الجاسوس .
64 - تحت الصفر .
65 - الجليد ش .
66 - ألف وجه .
67 - الجحيم المزدوج .
68 - قلعة الصقور .
69 - أجنحة الأنتقام .
70 - أباطرة الشر .
71 - ضد القانون .
72 - شريعة الغاب .
73 - المعتقل الرهيب .
74 - الدائرة الجهنمية .
75 - أسوار الجحيم .
76 - النهر الأسود .
77 - عمالقة مارسيليا .
78 - صحراء الدم جـ ١
79 - صفقة الموت جـ ٢ .
80 - وكر الإرهاب جـ ٣
81 - الرجل الأخر جـ ١
82 - الأخطبوط .
83 - معركة القمة .
84 - جزيرة الجحيم .
85 - لمسة الشر .
86 - الثعلب .
87 - خط المواجهة .
88 - سفير الخطر .
89 - قبضة السفاح .
90 - الهدف .
91 - الوجه الخفى .
92 - الخطر .
93 - أرض العدو .
94 - كتيبة الدمار .
95 - الصراع الوحشي .
96 - المعركة الفاصلة .
97 - الصقر الأعمى .
98 - القناص .
99 - مذاق الدم .
100 - الضربة القاصمة .
101 - انقلاب .
102 - نهر الدم .
103 - المحترف .
104 - الإعصار الأحمر .
105 - عقارب الساعة .
106 - الأفعى .
107 - اتحاد القتلة .
108 - الفخ .
109 - قبضة الشر .
110 - اغتيال .
111 - معبد الجريمة .
112 - الفريق الأسود .
113 - رياح الخطر .
114 - ممر الجحيم .
115 - بلا رحمة .
116 - مهرجان الموت .
117 - عمالقة الجبال .
118 - الأربعة الكبار .
119 - فوق القمة .
120 - السنيورا .
121 - وجه الأفعى .
122 - الأصابع الذهبية .
123 - المستحيل .
124 - اللمسة الأخيرة .
125 - عملية النيل .
126 - ساعة الصفر .

ملف المستقبل

سرى جداً!!

صدر من هذه السلسلة :

1 - أشعة الموت .
2 - أختفاء صاروخ .
3 - مدينة الأعماق .
4 - غزاة الفضاء .
5 - القنبلة الغامضة .
6 - زائر من المستقبل .
7 - جنون طائرة .
8 - الأرتجاج القاتل .
9 - صراع الحواس .
10 - الفارس المجهول .
11 - منطقة الرعب .
12 - طريق الأشباح .
13 - الزمن المفقود .
14 - نداء النجوم .
15 - مثلث الغموض .
16 - الوباء الجهنمى .
17 - نبض الخلود .
18 - ظلال الفزع .
19 - عيون الهلاك .
20 - العقول المعدنية .
21 - أطياف الماضى .
22 - ليلة الرعب .
23 - بصمات السحرة .
24 - الضوء الأسود .
25 - صحوة الشر .
26 - لعنة الفضاء .
27 - الفخ الزجاجى
28 - النهر المقدس .
29 - الايقاع المفترس .
30 - النار الباردة .
31 - رنين الصمت .
32 - الأفق الأخضر .
33 - حارس الأرواح .
34 - وحش المحيط .
35 - مرأة الغد .
36 - الموت الأزرق جـ ١ .
37 - السماء المظلمة جـ ٢
38 - من وراء النجوم جـ ٣ .
39 - الثلوج الساخنة .
40 - علامات الخوف .
41 - مملكة النار .
42 - الأرض الثانية .
43 - ثقب فى التاريخ .
44 - الخارقون .
45 - السحاب الأحمر .
46 - الكوكب الملعون .
47 - المقاتل الأخير .
48 - سجن القمر .
49 - غزو الأرض .
50 - الأسطورة .
51 - الخلية القاتلة جـ ١ .
52 - العدو الخفى جـ ٢ .
53 - أمطار الموت .
54 - عبر العصور جـ ١ .
55 - أسرى الزمن جـ ٢ .
56 - شيطان الأجيال جـ ٣ .
57 - منطقة الضياع .
58 - معركة الكواكب جـ ١ .
59 - جحيم أرغوان جـ ٢ .
60 - أرض العمالقة .
61 - الكابوس .
62 - سادة الأعماق جـ ١ .
63 - المحيط الملتهب جـ ٢ .
64 - السيف البلورى جـ ١ .
65 - أبواب الموت جـ ٢ .
66 - الشمس الزرقاء .
67 - شيطان الفضاء .
68 - عقول الشر .
69 - العالم الأخر .
70 - الستار الأسود .
71 - أمير الظلام .
72 - ابن الشيطان جـ ١ .
73 - مبعوث الجحيم جـ ٢ .
74 - الصراع الجهنمى جـ ٣ .
75 - الجولة الأخيرة جـ ٤ .
76 - الاحتلال جـ ١ .
77 - المقاومة جـ ٢ .
78 - الصراع جـ ٣ .
79 - التحدى جـ ٤ .
80 - النصر جـ ٥ .
81 - رمز القوة .
82 - حصن الأشرار .
83 - أرض العدم .
84 - كنز الفضاء .
85 - الأمل الفيروزى .
86 - الإمبراطور .
87 - نصف آلى .
88 - الانفجار الحى .
89 - البركان .
90 - رعب فى الأعماق .
91 - ضد الزمن .
92 - الرحلة الرهيبة .
93 - نقطة الصفر .
94 - الساحر .
95 - القوة السوداء .
96 - بذور الشر .
97 - لهيب الكواكب .
98 - نيران الكون .
99 - الانفجار .
100 - الزمن = صفر .
101 - الحرباء .
102 - التوءم الرهيب .
103 - الأرض المفقودة .
104 - أنياب ومخالب .
105 - وجوه من ثلج .
106 - بلا أثر .
107 - لعنة الدم .
108 - مصيدة الفضاء .
109 - الدوامة .
110 - الفجوة السوداء .
111 - كوكب الطغاة .
112 - بصمة الموت .
113 - حرب الفيروسات .
114 - الرعب .
115 - العدو الخارق .
116 - العاصفة النووية .
117 - فارس الزمن .
118 - ألف عصر .
119 - زمن الدم .
120 - الفارس الثانى .
121 - المجهول .
122 - الظلال الرهيبة .
123 - دائرة الظل .
124 - الغزاة .
125 - كرة النار .
126 - لهيب الرعب .
127 - طريق النجوم .

فانتازيا

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال

1 - قصة لا تنتهى .
2 - حكايات من والاشيا .
3 - صفر ... صفر ... سبعة .
4 - إمبراطورية النجوم .
5 - ذات مرة فى الغرب .
6 - خيول ورماح .
7 - ألعاب إغريقية .
8 - مملكة الموتى .
9 - الخناقون .
10 - الاسم شكسبير .
11 - نداء الادغال .
12 - بين عالمين .
13 - رجل من كريبتون .
14 - من بعد سوبرمان .
15 - إعدام فى البرج .
16 - شبح وشيطان .

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة

٨ ، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة - ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

صدر من هذه السلسلة :

1 ـ من أجلك .
2 ـ لا تقل وداعا .
3 ـ قلوب لاتنبض .
4 ـ الدموع الباردة .
5 ـ هى فى حياتى .
6 ـ ياقلب لاتغفر .
7 ـ النبع الجاف .
8 ـ طيور بلا أجنحة .
9 ـ رسالة حب .
10 ـ لعبة القدر .
11 ـ العصفور الجريح .
12 ـ أشجار الحب .
13 ـ رحلة قلب .
14 ـ شمس الليل .
15 ـ الحب بلا أرقام .
16 ـ لقاء الحب .
17 ـ المرآة السوداء .
18 ـ حب وكراهية .
19 ـ وذاب الجليد .
20 ـ حب وسط النيران .
21 ـ دموع كيوبيد .
22 ـ أوهام الحب .
23 ـ نداء قلبى .
24 ـ حذار من الحب .
25 ـ الموعد .
26 ـ وداعاً ياحبى .
27 ـ حبى المعذب .
28 ـ لك قلبى .
29 ـ الحلم .
30 ـ زوجى .
31 ـ الحب والمعجزة .
32 ـ وداعاً للماضى .
33 ـ طائر غريب .
34 ـ هذا الرجل .
35 ـ التقينا من جديد .
36 ـ نسمة الصباح .
37 ـ لن أعود .
38 ـ الشريكان .
39 ـ أنت قدرى .
40 ـ بلا أمل .
41 ـ أحلام ضائعة .
42 ـ أبى الحبيب .
43 ـ الحاجز .
44 ـ لن أنساك .
45 ـ ستبقى فى قلبى .
46 ـ أحببتك فى صمت
47 ـ رجل وقلبان .
48 ـ الحب الجريح .
49 ـ الحب والاختيار .
50 ـ وابتسمت الحياة .
51 ـ اللقاء الأخير .
52 ـ عودة الغائب .
53 ـ أمواج الحب .
54 ـ معك دائماً .
55ـ اغفر لى .
56 ـ لقاء فى الغروب .
57 ـ جدار الماضى .
58 ـ لأنى أحبك .
59 ـ الأسيرة .
60 ـ مرحباً بالحب .
61 ـ شمعة لاتنطفئ .
62 ـ لا ترحلى .
63 ـ لمسه حب .
64 ـ الصديقتان .
65 ـ الوجه الدميم .
66 ـ خفقات قلب .
67 ـ جراح الماضى .
68 ـ حبيبتى الوحيدة .
69 ـ آلام الحب .
70 ـ كفانا عناداً .
71 ـ رجل أحببته .
72 ـ نبع الحب .
73 ـ مشاعر دافئة .
74 ـ أشواك الحب .
75 ـ لن أبكى .
76 ـ قلوب حائرة .
77 ـ وداعاً للأبد .
78 ـ فتاة جميلة .
79 ـ قسوة وغفران .
80 ـ زهرة برية .
81 ـ زهرتى الجميلة .